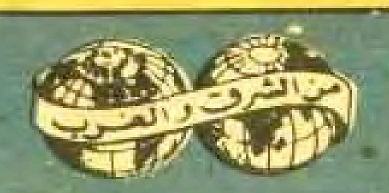
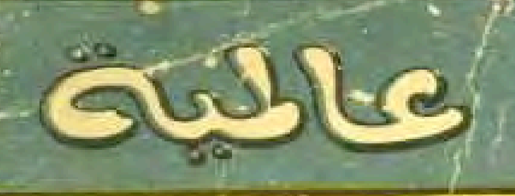
روايات





طفلة فى خطر

A SHADOW IN THE WILD

٥٠ مليما

طفلة فى خطر

للكاتب الأمريكى

هيت ماسترسون

تعريب

المقدم حسن محمد أحمد

مقدمة

قف حيثما شئت فى جنوب كاليفورنيا وانظر حواليك .. ترعك تلك السلاسل المتصلة من الجبال والهضاب الطباشيرية التى تفصل بين الوادى الضيق والصحراء الرهيبة الشاسعة التى تمتد الى مدى البصر شرقا حتى تصل المحيط .. مناطق صخرية جدباء محرومة من الماء لا زرع فيها ولا ضرع ، فقيرة من الذهب والمعادن الأخرى ، لم يجد المكتشفون الأوائل ما يغريهم بأن يحطوا فيها رحالهم ، بل كانت فى نظرهم مجرد عوائق طبيعيـــة تحول دون تقدمهم غربا ، فاجتازوها على عجل وبمشـــقة كبرى ، ثم هبطوا الى السهول حيث تجود الطبيعة بالحشائش الخضراء والكلأ الوافر واحترفوا تربية الخيول والثيران والأبقار وأقاموا المزارع الواسعة وسرعان ما لحق بهم غيرهم من المهاجرين وتضاعف عـــددهم ، وشيدوا المنازل لهم ولأسرهم حتى نشأت المدن !

اما تلك التلال والهضاب وما وراءها من صحراء تلهب الشمس الموقدة رمالها فتتوهج الصخور من قسوتها ، فقد ظلت خالية من العمران ، لم تمتد لها حركات البناء والتعمير لا تكاد تلمح فيهـا أثرا لقدم انسان !

ولو حملت واحدا من سكان المدن حيث تمضى الحياة وسط الجماعة فى نعومة ويسر ، جردته من سيارته ((وخرائطه)) ، وألقيت به بعيدا عن الطريق العـــام بما لا يزيد على مائة باردة فحسب ، لوجد نفسه فى مكان موحش غريب عنـــه وكأنك تركته وسط

الصحراء الكبرى ! سوف يزوغ منه البصر وتشتد به الحيرة بين بحار لا نهاية لها من الرمال الخداعة المتحركة ورؤوس التلال المتماثلة وقمم الهضاب الصخرية المتشابهة بما تحويه من مئات الكهوف المظلمة والشجيرات الشوكية فيختلط عليه الحال ولن يعرف أبدا طريق العودة ..

وبرغم ما وهب الله للانسان من عقل ، ميزه به عن سائر المخلوقات ، فانه لا يكاد يتوهم أنه قد ضل الطريق حتى يستبد به الرعب والفزع ، ويضطرب باله فينطلق مشتت الفكر على غير هدى ، مبتعدا ، دون أن يشعر ، عن هدفه السليم ولربما لقى بذلك حتفه .

يحدث هذا للناس جميعا ، فما بالك لو حدث لطفلة فى عمر الزهور ؟

القسم الأول

عصر الخميس

كانت «جانى كوبر» قد بعدت عن « المخيم » بالقدر المسموح لها به . وتيقنت ذلك حين ألقت بنظرها للوراء واستطاعت بعد جهد أن تلمح معالم الخيمة مثلثة الشكل من بين - أشجار السنط المحيطة بها . ولكن ما زالت الزهور البرية التى انطلقت لجمعها بعيدة عنها مائة ياردة على الأقل ، فمضت اليها عبر الهضبة العريضة والتى يطلقون عليها (الهضبة الصينية) .

وتوقفت فى مكانها لحظات مترددة فى استئناف المسير وقد تذكرت تحذير أبيها لها .. بيد أنها ابتسمت عندما تذكرت كيف تفاجئه بباقتها الجميلة من الورود والأزاهير مختلفة الألوان عطرة الرائحة .

وكانت قد بلغت - ذلك الصيف - عامها العاشر . وفى اعتقادها أنها لم تعد طفلة صغيرة حتى تحتاج الى تحذير ، ولعل ما دفعها للمضى بمفردها بعيدا عن المخيم هو رغبتها فى تحطيم كل الحواجز والقيود لتؤكد لأبيها اعتمادها على نفسها وقدرتها على التصرف وحدها دون خشية عليها .

وكان جسمها قد نما فى الأعوام الأخيرة حتى بدت أكبر من عمرها .

عمـرها وهى وحيدة أبويهـا مما جعلها المدللة التى لا يرفض لهـا طلب • ولاشك فى أنها كانت تشعر أحيانا بالوحدة ، بيد أنها كانت تلتمس فى أحلام الصبا مما يسرى عنها آلام الوحدة •

وكانت تعلم بطبيعة الحال أن تلك المرتفعات الشاهقة التى تراها أمامها ليست الا (جبال الكانتو) والتى تمتد فى الشمال والجنوب الى مسافات بعيدة ، وتشاهدها كل صباح من نافذة غرفة نومها فى منزلها بالمدينة ، وأن المكان الذى ضرب فيه والدها مخيمه يدعى (بورتال كانيون) ولا يبعد أكثر من ميل واحد عن ممر (حنا) الذى هو على قيد ميل آخر من الطريق الرئيسى المرصوف المؤدى الى المدينة الكبيرة حيث تقيم .

ووجدت نفسها تقول فى صوت مسموع :

ـ ليتنى أقيم هنا الى الأبد !

فقد استحوذت المناظر الرائعة على خيالها وأسرت قلبها . ولكن وا أســـفاه ! ها هى ذى عطلتها الدراسية قد أوشكت أن تنتهى وسوف يعيدها والدها يوم السبت القادم الى والدتها لتستأنف دراستها صبيحة اليوم التالى .

ولم تكن جانى تعلم بذلك الشقاق بين والديها ، مما جعل كلا منهما يقيم بعيدا عن شريك حياته ، فقد حرصا فى كياسة تامة على أن يخفيا ذلك عنها بأسباب ملفقة حسب خطة اتفقا عليها .

ومضـــت جانى حتى بلغت ذلك الجدول الهادىء الرقراق المسمى « غدير كريك » وجثت على ركبتيها تجمع الزهور البرية اليانعة التى انتشرت على شاطئيه فتنسقها فى باقة مختلفة الألوان.

وكان يتدلى من عنقها منظار مقرب صغير (تلســـكوب) مما يلهو به الأطفال مثبت فى أحد جانبيه بوصلة دقيقة الحجم . كان والدها قد أهداه لها فى عيد ميلادها السابق ••

وخلعت المنظار من حول رقبتها وراحت تفحص البوصلة بعد أن وجهت ابرتها المغناطيسية جهة الشمال «كما تعلمت من أبيها» وكان ثمة مرتفع من الأرض يحجب عنهـا «بورتال كانيون» حيث

يقع مخيم والدها ، أما فى مواجهتها شمالا فكانت ترى قمة ذلك التل الصغير الذى يسمونه «برود ليف» ، وكان الوادى العريض يمتد جنوبا حتى ينتهى بالمنطقة الصخرية ذات الرؤوس الحادة السمراء . وفى الشرق تلك الهضبة التى طالما حذرها أبوها الاقتراب منها لأنها حافلة بالرمال الخداعة والأشجار الشوكية والأخاديد العميقة التى تكثر فيها الكهوف المظلمة حيث تأوى الوحوش المفترسة .

أجل . طالما حذرها أبوها الذهاب اليها ، مما أثار فضولها وكثيراً ما سألته عن ذلك بيد أنه كان يكتفى بأن يعبس ويقول :

ــ انها منطقة حافلة بالشياطين فلا تقربيها .

ولم تجد فى ذلك شافيا لغليلها ، وتمنت أن ترى ذلك بنفسها !

وحملت ياقتها ثم استوت على قدميها وقد اعتزمت أن تعود للمخيم ، وعندئذ لاحظت صخرة مستوية تكاد تكون مدفونة وسط الحشائش فى صدر الهضبة ــ وحدثت نفسها بأنها لو ذهبت اليها فسوف تستطيع أن تشرف من فوقها على كل الطبيعة من حولها وترى من خلال منظارها المقرب كيف تبدو خيمة أبيها وسط الأشجار .

وانطلقت فى السير تحمل باقة الزهور فى احدى يديها ومنظارها فى الأخرى ، حتى بلغت الصخرة ، وتبين لها أنها أكثر ارتفاعا مما كانت تبدو عن بعد . بيد أنها لاحظت أنها ليست شديدة الانحدار فى أحد جوانبها وفى استطاعتها أن تتسلقها بقليل من الجهد ، وسرعان ما صارت فوق قمتها وقد هزتها نشوة السرور والنصر .

وقفت تتطلع حواليها فى عجب وخيلاء ، وشعرت وهى على ذلك الارتفاع أنها كمن ملك الدنيا بين راحتيه ، واستبدت بها الدهشة حين تبين لها أنها قطعت مسافة طويلة حتى بلغت ذلك المكان .. فقد كادت «بورتال كانيون» تختفى عن نظرها وقد

بدأت شمس الأصيل تنحدر نحو الغروب ، وحينما أدارت منظارها نحو «هضبة الشيطان» لم تتبين الا صخورا سوداء تمتد حتى الأفق البعيد تختلط بالأشجار الصنوبرية والنباتات الشوكية في كل مكان .. حتى ذلك الغدير الذى تحبه وطالما التقطت منه زهورها الجميلة بحثت عنه فلم تجد له أثرا .

وبرغم كل ذلك ، فلم تشعر فى نفسها بأى خوف أو رهبة ، فالطبيعة الهادئة ومناظرها الساحرة كأنها لوحة رسمتها ريشة فنان ! وراحت تبحث بمنظارها عن معالم فى الأرض معروفة لها ، فوجهت نظرها عبر «برود لوف» ومنطقة المناجم حيث توجد شجرة البلوط الضخمة كأنها حارس عملاق يسهر على تلك الفجوات المظلمة العميقة فى باطن الأرض . ثم أدارت منظارها نحو الصخور البعيدة وكادت تتم دورتها عندما توقفت فى دهشة بالغة !

كانت تظن ــ والسكون شامل حولها ــ انها الوحيدة فى تلك المجاهل المقفرة ، بيد أنها تبينت خطأها ! فقد لمحت رجلين يقفان فوق صخرة أكثر ارتفاعا . وبرغم ما بينهما من مسافة كبيرة قد كانت تراهما من خلال منظارها الصغير بوضوح تام ــ وان تعذر عليها أن تميز ملامحهما تماما ، ولم يكن أيهما غريبا عنها فقد تقابلت بهما خلال الأيام القليلة الماضية لكنها لا تكاد تعرف اسميهما أو ماذا يعملان على وجه التحقيق .

وفى فرحة غامرة راحت تلوح بذراعها لتسترعى أنظارهما ، لأنهما فيما يبدو لم يشعرا بوجودها وهى تقف على صخرة أدنى مستوى من تلك التى يقفان فوقها ، وفتحت فاها لتناديهما محيية ولكن الكلمات مالبثت أن احتبست فى حلقها حينما أدركت فى جلاء معنى ما كان يدور أمام عينيها فقد رأت أحدهما يسدد بندقيته نحو الآخر !

***

كان الشيخ يواجه الموت .. يراه مجسما فى وجه الرجل المسلح العابس ، ونظراته التى كانت تحمل بريق الغدر ، ويطل عليه من فوهة البندقية المصوبة الى جسمه ، وغمره عرق غزير . وغمغم يقول :

ـ لا أدرى لماذا تسدد بندقيتك نحوى ..

وازدرد لعابه بصعوبة وأضاف قائلا :

ـ وأنا لم أقصد بك شرا ..

وراح الرجل ذو البندقية يفكر وهو فى ثورة غضبه ما أيسر أن يتم كل شيء ! لمسة خفيفة من سبابته على « الزناد » ويخطف عزرائيل روحه النجسة .. ستنطلق الرصاصة وتشق طريقها الى صدر غريمه النحيل ويرتاح للأبد من تعليقاته اللاذعة وضحكاته الساخرة ..

وشعر بسرور عميق يهز كيانه . كان يفكر فيما يدور داخل أعماقه . ها هو ذا يقف فوق تلك الصخرة العاتية والدنيا كلها تحت قدميه ، وكل أسباب القوة والجبروت بين يديه .

وكان صمته يضاعف من فزع ذلك العجوز الأحمق ، بل انه ليمسح عرق يديه فى جانبى سرواله وهو يرتعد منه رعبا ، ويتلعثم قائلا :

ـ ما كنت الا أمزح معك يا صديقى .. وما تخيلت قط أن ذلك قد يغضبك أو يسيء اليك !

وأجابه فى هدوء :

ـ لقد اخطأت حينما أطلقت على تلك الشائعات ..

ـ انا لم اقصد الاساءة اليك اطلاقا . بل مجرد المزاح كما تعلم .. كما يمزح الرجل مع صديق له ..

وكشر الرجل ذو البندقية عن نابيه فى ضحكة صفراء وهو يقول :

ـ صديق ؟ شد ما يسعدنى أن ترفع من قدرى الآن وتعتبرنى

صديقا ! وهذا مديح لا أستحقه ! فقد ظننتك تقول : انى مجرد جعجاع فاشل ، وشريد «عاطل» .

وغمغم الشيخ يقول فى بطء وهو يحتار كلماته فى عناية حتى لا يثير الرجل :

ـ أؤكد لك أنى لم اقصد بك شرا ، وكل ما كنت أهدف اليه أن تأخذ من تجاربى لأنى أكبر منك سنا وأكثر خبرة فى الحياة ، وربما أوجعتك نصائحى ، أو تجاوزت حد مزاحى معك ، ولكنى كما ترى رجل لا أبحث عن المتاعب ، وعندى منها مايكفينى فعلا .

وكانت فوهة البندقية لا تزال مسددة الى الضحية ..

ـ كان الأجدر بك أن تفكر طويلا قبل أن تلاحقنى بلذعاتك الموجعة ..

وحتى تلك اللحظة لم يكن معتزما اطلاق النار . لاشك فى أن اللعين يستحق القتل لسخرياته التى كان يطلقها عليه وضحك لها الناس .. بيد أنه كان يشعر بارتياح عميق وهو يراه يسترحم ويستعطف معتذرا تائبا .

وشعر الشيخ بأن الخطر يبتعد عنه ، فكف عن مسح راحتيه فى جانبى سرواله وقال :

ـ ثق بأنى لن أتعرض لك بتاتا اذا كانت تلك هى مشيئتك .

وبدأ يتحرك فوق الصخرة مبتعدا فى بطء .

وحدث الرجل ذو البندقية نفسه : « دعه ينصرف . لقد لقنته درسا ورأى الموت بعينى رأسه » .

ولكن ما كاد الكهل يصل الى نهاية الصخرة هابطا الى الهضبة حتى توقف ، ونظر من فوق كتفه قائلا :

ـ لو كنت فى مكانك أيها السيد لذهبت من فورى وعرضت نفسى على أحد الأطباء .

وعادت الثورة أعنف مما كانت ! ان الكهل الأحمق لم يحفظ

درسه برغم كل ما حدث . حسنا . دعه يحفظه عن ظهر قلب ،
وفى الحال ضغطت سبابته على « الزناد » فى عصبية .

ولم يصدر عن الرصاصة دوى أو صوت ملحوظ ، اذ ابتلعته الآكام والصخور ، وانطلق الصدى ضعيفا عبر الهضبة العريضة حتى «تلاشى» فى الفضاء الواسع الكبير .

وتسمر الرجل فى مكانه مذهولا ، وهو لا يصدق أنه ضغط فعلا على «الزناد» ، فقد تم كل شىء فى طرفة عين ، أسرع مما توقع ، ولكنه ما أن رأى غريمه يندفع ـ بقوة المقذوف النارى ـ للأمام ، وينكفىء على وجهه متخبطا فى دمائه ، ثم يسلم الروح فى الحال حتى صدمته حقيقة ما حدث !

وسكن غضبه ، وران عليه هدوء عميق ، ومضى الى الجثة يتأملها دون عاطفة معينة سوى الشعور بالارتياح . وما كانت به حاجة حتى يفحصها فالشيخ قد سكنت حركاته ومات ولاشك فى ذلك ، على أى حال لقد لقى جزاء عادلا لمضايقاته المستمرة التى فاقت المعقول . ولم يعد فى طاقة الرجل تحمل المزيد ، ولن يلومه مخلوق على ما فعل بكل تأكيد ، وغمغم يقول فى صوت مسموع

ـ دفاع شرعى . فى استطاعتى أن أقول لهم : انه هاجمنى على غرة وشرع فى سرقتى .

وشعر فجأة بالقلق ، وهو يقف على تلك الصخرة المرتفعة مكشوفا للأنظار ، وفى عصبية استدار وراح يبحث فيما حوله ، ولم يلمح أحدا فى منطقة الصخور ولا فى « برود لوف » المواجهة له ، وفجأة وقعت عيناه على شىء يتحرك فوق الهضبة الصينية ، وأحس بالاضطراب وكأن وحشا كاسرا قد أنشب مخالبه فى قلبه .

فهناك ، وعلى مستوى منخفض عنه رأى مخلوقة صغيرة ترتدى «سترة» حمراء تنظر ناحيته وانعكست أشعة الشمس على شىء ترفعه أمام عينيها .. وتسارعت أنفاسه وهو يغمغم متعجبا

٧

ـ يا للويل ! ان الطفلة تحمل منظارا مقربا !

وفى حركة غريزية رفع بندقيته الى كتفه وأطلق النـــار على « الانسانة » الوحيدة التى شاهدت جريمته .. ولم يدرك أنه قد أرتكب بذلك خطأ جسيما الا بعد فوات الأوان ! فالمسافة أبعد من أن تصاب الطفلة من رام غير محترف . وكانت لديه أكثر من وسيلة لتسوية تلك المشكلة مع الطفلة دون استخدام سلاحه ، وربما يكون من الجائز أنها لم تره وهو يقتل الكهل حتى يقدم على التخلص منها فيتورط فى جريمتين . لم يدرك كل ذلك الا بعد أن سبق السيف العذل .

وكما تنبأ أخطأت الرصاصة الطفلة ، بيد أنها سببت لها انزعاجا شديدا ، فقد أسرعت تتعثر فى خطواتها منحدرة من فوق الصخرة الكبيرة تبحث حولها عن أقرب مكان تستتر خلفه قبل أن يعود لاطلاق النـــار أو يفكر فى ذلك ! واختفت بين صخور هضبة الشيطان .

وأطلقت ساقيها للريح ، ولم ترســـم لنفسها خطة للهرب بل انصرف كل تفكيرها الى ضرورة الفرار من ذلك الرجل حامل البندقية ، فاختارت هضبة الشيطان ملاذا لها تختفى فيه لكثرة مغاوره وشقوقه ، بدل أن تعرض نفسها فى السهل المكشوف فيراها الرجل ويعيد الكرة التى لابد أن تصيب هذه المرة !

وهكذا لبت نداء الغريزة فى أن تبتعد عن الخطر بأية وسيلة ممكنة ، فمضت لاهثة الأنفاس زائغة البصر ، مهرولة بين المغاور الضيقة والمنحنيات الخطرة والصخور الحادة تنزلق صاعدة أو هابطة فتسقط ثم تقف على قدميها ثم تعاود الجرى لا تبالى بالخدوش أو الكدمات .. تجرى وهى تنظر للخلف أكثر مما تنظر للأمام حتى اختلط عليها الأمر ولم تعرف يقينا من أى جهة قدمت وبرغم ذلك راحت تهيم على وجهها يدفعها الذعر قدما بلا هدى ، وكل خطوة تبعدها عن الهدف وتدفعها بين أنياب هضبة الشيطان طريق تائه المعالم لا أول له ولا نهـــاية .. وبلا دليل غير المخاوف والهواجس والظنون ..

وبدأ الارهاق يتغلب على الاحساس بالفزع .. وما لبثت أن خارت قواها وعجزت ساقاها المرتجفتان عن حملها فهوت فى ظل شجرة بلوط ضخمة .. انها النهـــاية ! وراحت تنتظر فى يأس واستسلام - وبين لحظة وأخرى - ظهور عدوها ليخطف روحهـا حتى ترتاح من متاعبها .. ومرت الدقائق ببطء دون أن تســمع شيئا سوى دقات قلبهـــا ، التى كانت تتردد - فى عنف دقات الطبول - بين ضلوعها .

وبعـد فترة بدأ اضطرابها يزول قليـلا ، وصفاء عقلها يعود رويدا رويدا .

كانت تعلم ان الانسان قد يقتل غيره أحيـــانا .. وأن ذلك مخالف للقانون .. وأن القاتل حين يسقط فى يد رجال الأمن .. يحاكم وينال جزاءه وفاقا على ماجنت يداه. وأن القاتل فى سبيل حماية نفسه من كل ذلك يصنع المستحيل حتى يفلت من القانون. ويبذل كل وسعه حتى لا يراه أحد .. وان حدث .. فهو لايتردد فى قتل «الشاهد» فورا حتى يضمن نجاته .

وسرت رعدة قوية فى جسمها النحيل وهى تقول: «أنا شاهدة الاثبات الوحيدة » ومن أجل ذلك يطاردها القاتل ، ولن يهدأ له بال حتى ينالها .

وحدثت نفسها بأنها لا ترغب فى أن «تتشـــهد» على شيء .. ولا تريد أن تتحدث لمخلوق عما رأته فحسبها أن تعود الى والدها !

وما كان لديها أدنى شك فيما شاهدته بعينيها . لقـــد قتل « الأستاذ » .. الرجل الكهل . انهـــا لا تذكر اسميهما برغم أن أباها سبق أن قدمهما لها . وكان يعرفهما وتحدث معهما . فالشيخ الذى كان مهتمـــا بالبحث عن الذهب والفضة بين الجبال ، أقام لنفسه كوخا صغيرا فوق الصخور . أما «الأستاذ» فكانت لاتعرف عنه الـكثير سوى أنه مثلها ليس من سكان الجبال . وهى تعـلم أن كلمة «أستاذ» تعنى أنه مدرس للـكبار .

وها هو ذا «الأستاذ» يبحث عنها ليقتلها ..

وحدثها عقلها بأنها لن تستطيع البقاء فى مكانها مدى الحياة ، ولابد أن تعود لأبيها فهو الذى سيحميها من غدر عدوها .

وبدأت لأول مرة تتساءل فى أعماقها : أين هى بالنسبة للمخيم ؟ لم تشعر بأنها تاهت . فهناك غدير « لينجر » الذى سارت فى حذائه وهى تجرى هاربة الى هضبة الشيطان ، وكل ما عليها أن تعود من حيث أتت ولسوف تمضى عبر المروج والوادى العريض . وهناك ستجد معالم من الأرض تعرفها حيث الأمان .

ولكن «الأستاذ» هناك فى طريقها !

وحدثت نفسها : حسنا . سأسلك طريقا آخر . لو أنى صنعت دورة تنتهى فى ذلك الاتجاه من خلف المكان الذى يسير فيه الرجل .. فلن يرانى ولن أضل طريقى بكل تأكيد ومعى بوصلتى ترشدنى ..

ووضعت يدها على صدرها ، فأصابها الجزع حين لم تجد منظارها المكبر معلقا بتلك الحمالة الجلدية حول رقبتها . ضاعت ! وعندئذ تذكرت أنها كانت قد خلعتها حين كانت تستكشف الطبيعة وراء الصخور ، ولابد أنها سقطت بلا شعور منها وهى تجرى فزعة مرتاعة .. ذهب المنظار ومعه البوصلة أيضا وأمست بلا دليل !

وهتفت فى غيظ :

ــ يا للسماء .. ونكد الطالع ! كيف أتصرف الآن ؟ سوف أمضى بلا بوصلة ، وأشق طريقى مهما كان الأمر !

وانطلقت وسط المغاور والشقوق وقد قررت فى عزم أن تنفذ خطتها .

وبين أنياب هضبة الشيطان .. وقف الأستاذ يفكر ..

كان ــ وبعد أن أخطأ الهدف ــ قد هرول هابطا منحدر الصخرة الكبيرة السمراء وراء الطفلة ، بيد أنه ما كاد يصل

الى الوادى العريض حتى كانت الطفلة ، قد اختفت عن نظره تماما ولم يستطع أحد أن يحــدد أين ذهبت بين تلك المغــاور الضيقة والمنحنيات الخطرة والكهوف المنتشرة فى المنطقــــة كلها ، لذلك وقف مترددا مستغرقا فى التفكير ..

وفجأة لمع شيء تحت قدميه بين العشب فانحنى والتقطه .. كان منظارا مقربا صغيرا مما يلهو به الأطفال ، سقط من الطفلة فى أثناء هروبها .. ووضعه «الأستاذ» أمام عينيه وسدده الى الأمام ثم الى أعلى ، تجاه تلك الصخرة المرتفعة حيث كان يقف مع الرجل الــكهل ولاحظ أن عدستى المنظار أقوى مما كان يتوقع . فمن خلالها رأى جثة ضحيته وقد سقط ذراعه ماثلا على حرف الهوة بل لقد خيل اليه أنه يرى أظفار يده المتسخة .

لاشك فى أنها قد رأت كل شيء بوضوح تام ، ما الذى جعلها تأتى فى تلك اللحظة بالذات الى ذلك المكان ؟ انه لا يكرهها وليس بينهما ما يدعوه الى الاساءة اليها ..

وراح ينظر مرة أخرى للجثة الملقاة على الصخرة بادية للعيان لابد من التخلص منها أو اخفائها فى الحال . ولحسن الحظ كان هناك أكثر من مكان مناسب لذلك الغرض فى الفضاء العريض .

ودس منظار الطفلة فى جيبه ، ومضى يشق طريقه صعودا مرة أخرى ، وهو يقف بين كل لحظة ولحظة ، ينظر حوله وينصت .. لــكنه لم ير ولم يسمع سوى حفيف أوراق الأشجار . لقد استبد بالطفلة الرعب ولاشك فى انها مختفية الآن فى مــكان ما بهضبة الشيطان تستجمع قواها . حسنا . انها فرصة تتيح له وقتــا كافيا ليتخلص من جثــة الــكهل ، حتى يتفرغ بعدها لمشــكلة الصغيرة ..

وكانت الجثة خفيفة الوزن فحملها « الأستاذ » فى يسر فوق كتفه ومضى بها خلال الشقوق حتى وجد مكانا ملائما لا يحتمل أن تصل اليه قدم انسان ، وألقى حمله على الأرض وأخذ ينبش بأظافره قبرا فى التراب الناعم .

وعلى عمق حوالى ثمانى عشرة بوصة .. اصطدمت أظافره بطبقة صلبة لم يستطع التغلب عليها دون معول أو فأس ، وقرر الاكتفاء بما فعل ، فوضع الجثة فى الحفرة وأهال عليها التراب فى عجلة .. ثم مضى الى تلك الصخرة المعلقة وراح يحركها بكل ما أوتى من جهد وقوة حتى هوت من مكانها وسقطت على قبر الكهل محدثة ضجة شديدة وغبارا كثيفا .. حقا انها لم تغط كل القبر ، ولكنها أدت المطلوب على أى حال .

وانطلق الأستاذ مسرعا الى نقطة المراقبة التى تشرف على الوادى . لم يكن ثمة أى أثر للطفلة ، ولكن ظلمة الغروب قد بدأت تنشر غلالتها فوق المروج ، مما جعل الرؤية غير واضحة تماما . فهبط المنحدر الى مكان بين صخور الجرانيت يخفيه عن العيون وجلس ينتظر ! فمهما كان الطريق الذى ستسلكه الطفلة فلابد أن تمر قريبا منه فى طريقها الى مخيم أبيها والذى يعلم الأستاذ أنه فى بورتال كانيون . ليس لديه أدنى شك فى ذلك فقد عرف من تكون . انها ابنة كوبر .

***

استيقظ ماتيو كوبر من نومه وهو يشعر بانقباض مفاجىء لم يدر له سببا ، ونظر فى ساعة معصمه . لقد قاربت منتصف الخامسة ، وساءه أنه نام طويلا . ويبدو أن هواء الجبال هو الذى دعاه للاسترخاء ، أو ربما حالة الركود والكسل التى مارسها خلال أيام اجازته القصيرة ، بعد ما بذل طوال العام فى عمله من مجهود عقلى وبدنى ، أو ذلك الهدوء الشامل الذى يخيم على المكان الذى ضرب فيه خيمته .

وتثاءب كوبر فى خمول .. وهو يشعر بالأسف لأن أيام راحته قد آذنت بالانتهاء .. وسيعود بعد يومين فقط الى حياته المعتادة الحافلة بالمهام والمشاغل الكثيرة .. وحسنا فعل .. فقد استمتع بلحظات سعيدة هو وفتاته جانى فى ذلك الجو الصحراوى الطلق وبين احضان الطبيعة الرائعة . وتذكر فى أسى انه سيفتقد جانى

بعد يومين ويحرم من لقائها حين يعيدها لوالدتها وتذهب الى مدرستها حيث لن يراها الا فى العطلة القادمة .

وتمنى لو أن ذلك العراك لم يحدث بينه وبين « أستر » وكان يضمهما بيت واحد بدل تلك الفرقة التى أبعدت بينهما .. لو أنه تنازل قليلا وطامن من حنقه وكبريائه .. طالما حاول ذلك حتى تمضى بهما الحياة معا فى رفق ، ولعل استر قد حاولت ذلك أيضا ، ومع ذلك فقد خانهما التوفيق ..

وهتف مناديا :

ـ جانى هل أنت جائعة حتى نجهز عشاءنا ؟

ولم يتلق ردا . فنهض من فراشه ومضى خارج المخيم .

ـ جانى ! . أين أنت ؟ .

انها ليست فى المخيم ، ولا بالقرب منه ! . بيد أنه لم يجزع فهو يعلم أنها تحب التجوال وقد سمح لها به فى حدود مرسومة وقرر أن يبدأ فى اعداد العشاء .

وأخرج من ثلاجته المتنقلة بعض اللحم المحفوظ وأشعل موقد البوتاجاز وهو يصوب بصره للخارج يتفحص الوادى العريض فى انتظار ظهور جانى .. ولكنها لم تظهر .

وغمغم يقول :

ـ ترى أين ذهبت ؟ ألم تشعر بأن الوقت قد حان للعشاء ؟ .

ورأى أن من الخير البحث عنها ، وأعاد طبق اللحم الى الثلاجة بعيدا عن الذباب ، ومضى فى الطريق المؤدى للوادى ووقف عند نهاية الهضبة الصينية وراح يناديها ، وفى ظنه انها ربما كانت مختفية بين أعواد العشب النامى الطويل .

ـ جانى ..

ومع ذلك فلم يتلق جوابا . وأعاد النداء بصوت أكثر ارتفاعا وقد وضع راحتيه حول فمه :

ـ جانى .. عودى سريعا فقد آن وقت الطعام .

وأرهف اذنيه لعله يسمع صوتها .. بيد أنه لم يسمع سوى صدى صياحه .

وانطلق عابس الوجه الى مسافة فى الوادى وهو يتساءل فى قلق :

ترى أين ذهبت حتى لا تسمع نداءه ؟ لقد وجه اليها تحذيرا مشددا أكثر من مرة ، وانه لواثق من اطاعتها لأوامره وتعليماته .. ثم ما لبث أن تبسم وقد فهم أنها تختفى عنه أحيانا حتى تثير قلقه ، ثم سرعان ما تخرج وراءه من مخبئها لتفاجئه بضحكة جميلة رنانة .

وأخـذ يبحث عنها حتى يباغتها بأنه هو الذى « اكتشف » مكانها .. وكان يتوقع أن تشب فجأة أمامه .. وبرغم أنه دار فى منطقة المخيم فلم تثب أو تظهر .

وابتدأ يشعر بالغضب .. وهتف قائلا :

ـ حسنا يا جانى ! . انى لأعترف لك بالفوز .. هيا عودى اذن ! .

وبدأ الغضب يصير قلقا . أترى قد وقع لها حادث ؟ كلا . بكل تأكيد كلا ! . فليس ثمة ما يخيف فى المروج الخضراء وسبق لها أن لعبت عشرات المرات وكانت تعود اليه سالمة ، كما أن الغدير ليس عميقا حتى يخشى عليها الغرق فيه .

وراح يصرخ بأعلى صوته :

ـ جانى . أين أنت ؟ .

ولم يجبه سوى الصدى ..

وأحس بانقباض فى صدره ، فالشمس تميل سريعا للغروب ، بل قد غربت فعلا عن المروج . وسرعان ما يمتد الظلام الى قمم الجبال ! . بحق السماء أين ذهبت ؟ . وانطلق بخطوات سريعة حتى منطقة المناجم عبر الوادى وكرر النداء .. دون جدوى ..

ذلك برغم يقينه من أنها لا يمكن أن تمضى فى تجوالها حتى ذلك المكان ، ولم يعد أمامه سوى « هضبة الشيطان » يا الهى ! . من المحال أن تكون قد مضت فى جولتها حتى هناك بعد أن حذرها مرارا من تلك المنطقة الكريهة الخطرة . وصاح بأعلى صوته :

ـ جانى ..

ولا فائدة ! .

***

كان « ماتيو كوبر » مخطئا حينما اعتقد أن أحدا لم يسمع نداءه ..

فقد سمعه الأستاذ بوضوح وهو رابض فى مكمنه بالقرب من مشارف هضبة الشيطان . وحتى تلك اللحظة كان يركز تفكيره فيما ينبغى أن يفعله بالطفلة . بيد أنه ما كاد يرى أباها قادما فى اتجاهه للبحث عنها وسمع صوته حتى أدرك مدى الخطر الجسيم الذى يتهدده من الأب ذاته .

وتنهد بارتياح حينما رأى الرجل يستدير وقد قفل عائدا فى اتجاه مخيمه .

لقد تأكد لكوبر أن طفلته قد ضاعت فى هضبة التيه .

راح كوبر ينتظر وهو يتطلع حواليه · وصـــاح مناديا اسمها بضع مرات فلما لم يتلق جوابا ، هرع يعدو الى منطقة المناجم · وسرعان ما غاب بين الظلال .

ورأى الأستاذ أنه ما دامت الطفلة لا تريد الخروج من مخبئها فلابد من أن يمضى اليها ويبحث عنها بنفسه .

***

تشدد كوبر ولم يفقد أعصابه . ورأى أنه ينبغى أن يستخدم عقله ويتصرف بحكمة ! . وأدرك أن شعورا قويا من القلق والخوف

بدأ يستولى على تفكيره . ولابد أنها فى مكان قريب . وراح يعمل ذهنه فى هدوء .. هل قالت قبل الغداء شيئا أو حتى مجرد التلميح الى المكان الذى اعتزمت الذهاب اليه ؟ .

ووجد نفسه يتوقف عند الأماكن التى يحتمل أن تلجأ اليها .. المروج . منطقة المناجم . هضبة الشيطان . طاف بها جميعا ، دون أن يصدق أن طفلته الوديعة مثال الرقة والطاعة ، تخالف أوامره فتضل طريقها بين الآكام والكهوف الخطرة . أين هى اذن ؟ .

وبرق فى ذهنه أمل جديد .. فهناك فى الاتجاه المضاد لبورتال كانيون ، وعلى مسافة ليست بالبعيدة ، يوجد مشرب ممر حنا .. حقا لم يسبق لجانى أن ذهبت اليه دون أن يرافقها ، لكنه لم يحرم عليها ذلك صراحة .. وهو يذكر أنهما قد تناولا ذلك المشرب بالحديث فى أثناء الغداء ذلك اليوم حيث أبدت رغبتها فى شراء بعض القصص الفكاهية المصورة مثل التى ابتاعها لها أول يوم حضرا فيه . يا للسماء ! . لماذا لم يتذكر كل ذلك من بادىء الأمر لابد أنها انطلقت الى هناك . وبسبب حلول الظلام لن يسمحوا لها بالعودة بمفردها . انها الآن فى انتظاره بكل تأكيد .

وترعرع الأمل فى صدره ، فبدأ يسير بخطوات واسعة ما لبثت أن انقلبت هرولة ، وأخيرا راح يجرى لاهث الأنفاس فى اتجاه ممر حنا ..

***

اختفى قرص الشمس الأحمر خلف التلال . ولم تستجب السماء لدعواتها الحارة فى أن توقف الأرض عن دوراتها أو الشمس عن المغيب ! . لقد أمست وحيدة فى ظلام الليل الرهيب ، وبدأت تنتحب فى سكون !

كانت الشمس تؤنس وحدتها وتبدد وحشتها فى أثناء ما كانت ماضية فى طريقها على حسب الخطة التى رسمتها للعودة . ولكن واحسرتاه !. ما كادت تبدأ دورتهـــا حول هضبة الشـــيطان حتى تبين لها أنها فقدت اتجاهها ولم تعرف مكانها ! .. وتعذر عليها أن تعرف الاتجاه الذى ينبغى عليها المضى فيه ، أو المكان الذى هى فيه فعلا ..

دب الفزع فى قلبها الصغير ، وضاعت فى وادى التيه ! ..

القسم الثانى

مساء الخميس

رفعت آليس هوفمان تلك اللوحة التى كانت ترسمها بالألوان ، وتنهدت فى ضيق وهى تردف قائلة :

ـ لقد قررت أن ألتزم الرسم التجريدى ، فالحقيقة أصعب كثيرا من الخيال . ما رأيك يا « جيب » ؟ هل يشبه هذا الرسم « شطيرة المربى » حقا ؟ .

ولم يلق الشاب النحيل والذى كان يجلس أمامها على المائدة فى تراخ . سوى نظرة عابرة على اللوحة وأجاب :

ـ أظن ذلك .

كان طويل القامة رشيقا قوى الساعدين . يعلق علامة الحدود النحاسية على صدره .

ورمقته الفتاة بنظرة من عينيها الساحرتين وهى تقول :

ـ لكنك لم تجب عن سؤالى ..

فقال فى اقتضاب :

ـ أتحبين مضايقتى ؟ .

وأخذت ترمق لوحتها مقطبة الجبين ، وقالت :

ـ يخيل الى أنها « باهتة » فى حاجة الى لون يبعث فيها الحياة .. لو أن أبى قد طلب رسم تلك اللوحات منذ وقت كاف .. انه يحسب الفنان آلة صماء .. يستطيع الانتاج فى كل آن !

وقاطعها جيب وقد بدأ صوته يعلو محتدا :

ـ هل لي أن أسمع منك ايضاحا كافيـــا ؟ أعتقد أن ذلك من حقى ..

ـ أوه . لا ترفع صـــوتك يا جيب . أو تريد الدنيا كلها أن تسمعك ؟ .

وأومأت برأسها الى أقصى المكان حيث كان ثمة زوجان يجلسان في نهاية نضد المشرب الطويل يجرعان الجعة ويتحدثان مع رجل يقف فى الجهة المقابلة .

ـ انها أسرة (لافلن) تتحدث مع أبيك .. ولا أرى ما يدعونى للخجل .

وقاطعته فى تحد :

ـ ولا أنا .

كانت آليس صبية فاتنة جميلة المحيا شقراء الشعر رشيقة القوام ومطت شفتيها متظاهرة بالغضب وهى تردف قائلة :

ـ ومع ذلك فلا حاجة بك لأن تستخدم (ميكروفونا) حتى يسمع صوتك من فى نهاية الغابة وأنت تخاطبنى ! ألم أصـــارحك بأنى لن أستطيع الزواج بك ؟ فلماذا لا تترك الأمر عند هذا الحد ونظل صديقين ؟ .

وقال لها فى عناد :

ـ مازلت أريد معرفة السبب ..

ـ وهل أنا مجبرة على ذلك ؟ انظر حولك يا جيب تعرفه !

وتلفت حواليه دون ان يفهم شيئا ، وغمغم يقول فى حيرة :

ـ كل شيء هنا فى مكانه ، كما أراه كل يوم ! .

كان المكان الواسع الكبير الذى يجلسان الى احدى موائده هو (استراحة آل) الواقعة على مفترق طرق ممر حنا . ويستخدم مشربا ومطعما ومخزنا «للبقالة» وكل ما يطوف بخيالك مما يحتاج اليه سكان المنطقة أو من يمر به من المسافرين ، كذلك كان أيضا

مكتبا للبريد ومن خلف البناء يقع المطبخ وغرف النوم . وكان البناء قديما والأثاث عتيقا يوحي بأن (آل هوفمان) والد آليس قد اشتراه على هذه الحال في تلك المنطقة الجبلية القفرة وقالت آليس :

ـ طبعا . كل شيء في مكانه ولا اعتراض لك عليه البتة ولو انى أخذتك حتى خارج المبنى فسوف تقول أيضـــا نفس الشيء على مفترق ممر حنا .

ـ هذا حق . ولست أدرى ماذا يغضبك في هذا . ربما كان المكان في منطقة موحشة قليلا ولكنه ..

ـ بل انها سنة الحياة . ولسوف يظل ممر حنا مكانا مغمورا لا حياة فيه . مجرد فضاء من الأرض على مفارق الطرق . وكفاني ما أضعته من عمري فيه .

وربما قد بالغت آليس مدفوعة بما تحس به من ملل ، في الاساءة الى ممر حنا ، فلم تعطه حقه ، فقديما كانت تلك المنطقة مركزا حيويا هاما . تعج بنشاط تجاري واجتماعي كبير . ذلك حين كانت تترى عليه جماعات المغامرين والمكتشفين والبـــاحثين عن الذهب من كل فج عميق . ولكن بمرور الأيام وعندما أصبح تكليف استخراجه تزيد على قيمته في الأسواق حدث انخفاض ملموس في عدد المترددين والمارين بذلك المكان . ولم يتبق من آثار ذلك النشاط القديم سوى مضخة لتزويد السيارات بالبترول ، ونقطة صغيرة للحدود ـ ثم استراحة آل .. وهو ما يكفي القدر القليل من المســـتكشفين وبعض أهالي المدن الذين يأتون من حين لآخر يضربون خيامهم هناك بقصد النزهة والترويح عن النفس في ذلك الجو الصحراوي الطلق ومناظر الطبيعة الساحرة ..

وغمغم جيب يقول :

ـ ولكنى لم أطلب منك الزواج بممر حنا .. بل طلبت منك الزواج بي .

ـ النتيجة واحدة . فأنت تعشق الحياة هنا ، واعترفت لي بذلك صراحة ..

ـ أما أقام أبوك بيننا ردحا طويلا ؟ ولابد أنه مرتاح له ..

وخفضت آليس من صوتها وقالت :

ـ ما أقام أبي هنا ولا اشـــترى هذا البناء الا ليوفر الهدوء والراحة لأمي المريضة .

ورمق جيب اباهـا بنظرة سريعة من فوق كتفه . وكان آل هوفمان في الخمسين من عمره يهيم دائما في خيالاته ، يحلم بالثراء السريع دون أن يصل الى تحقيق ذلك أبدا .. وكان في تلك اللحظة يشكو لفيل لافلن وزوجته مارتا ما يعانيه من كساد بالرغم من أن فصل الصيف قد أوشك أن ينصرم . وكان تعليل ذلك جاهزا أيضا لديه .. فقد عقب على ذلك قائلا :

ـ ان البط الذي يجذب السائحين قد هجرنا الى مناطق أخرى وكذلك الظباء . مما جعل الهواة الصائدين لا يحضرون فنعاني نحن المساكين الكساد والجوع .

وقال فيل لافلن :

ـ مازال الوادي ممتلئا بالظباء فلا حاجة للتشاؤم ـ ياصديقي .

ـ ظباء ؟ هيه . لقد سمعت أن الأسد « بن العجوز » قد بدأ يجول في هذه الربوع . سوف يجعل كل الظباء تفر خلف الحدود .

وفي أقصى الغرفة كانت آليس تقول لجيب :

ـ ذلك ما كنت أعنيه . كثيرا ما تسمع من أبي أنه يريد الهجرة الى مكان آخر ، ومع ذلك فانه لا يفعل شيئـــا . لقد كبر حتى أصبحت لا تسمع منه الا كلاما . أما أنا فلن أحذو حذوه . سوف أحصل على نصيبي من مبالغ التأمين الذي تركته أمي وأرحل خارج أمريكا الى باريس حيث أتعلم الرسم على ايدي من يفهمونه هناك .

ـ وما الذي يغريك في باريس ؟ .

وصاحت آليس في انفعال :

ـ عالم آخر مختلف .. يعج بالحياة والنور . الا تفهم هذا ؟

ـ بل أرى أن بناء عش هادىء نسعد فيه خير وأبقى .

وصمت برهة ثم استطرد قائلا وفى صوته رنة الأسى :

ـ اما اذا كنت لا تشعرين نحوى باى حب .. وأنت لم تصارحينى بذلك قط يا آليس ..

وهزت كتفيها وقالت :

ـ الحب ؟ لا تجعل العاطفة تتغلب على عقلك . فكلانا جاوز سن الطفولة .

ـ بل .. كان لك عقل أكبر حين كنت طفلة ! والذنب ليس ذنبك بل لأبيك الذى أوهمك بأنك شابة متفتحة ذات شخصية هامة ومن حقك أن تذهبى حيث شئت .

واحمر وجهها الصغير حنقا وهى ترد عليه :

ـ ولماذا تصر اذن على الزواج بفتاة ناقصة العقل ؟ ومن أنت حتى أقبل الزواج بك على أى حال ؟

وتضرج وجهه وهو يجيبها فى هدوء :

ـ بل تعرفين جيدا من أكون ..

ـ طبعا أعرف . ومادمت مصر على أن تعرف حقيقة السبب الذى يدفعنى لأن أرفض الزواج بك ، حتى لو كنت فهو لأنى لااريد أن تربطنى بالجبال التى تحبها فتجعل منى زوجة ثانية لك . فأمامى ميدان واسع كبير وآمال كبار أسعى لتحقيقها .

وحمل جيب قبعته من على ركبته ونهض قائلا :

ـ ارجو لك وقتا سعيدا فى باريس .

وتابعته بنظرها وهو يمضى بخطواته الواسعة ، وفتح الباب رجل فى تلك اللحظة واندفع داخلا المشرب . وهو يلهث بصعوبة كأنما قد جرى طويلا .. وعرفته آليس على الفور . انه السيد كوبر الذى ضرب خيمته فى بورتال كانيون يروح عن نفسه ومعه ابنته الصغيرة .

وهتف كوبر فى صوت مرتفع :

ـ هل حضرت جانى هنا ؟

وهز هوفمان رأسه وقال :

ـ ليست هنا . لم أشاهدها اليوم .

وامتقع وجه كوبر حتى حاكى وجوه الأموات ـ وقد استبد به الرعب . ومضت آليس نحوه :

ـ ما الذى حدث ياسيد كوبر ؟ ألا تعرف أين ذهبت جانى ؟

وهمس قائلا وهو يحملق فى بلاهة :

ـ لا أستطيع معرفة مكانها . لقد ضاعت .

وكان جيب يقف عند الباب متأهبا للانصراف ، بيد أنه عاد أدراجه حينما تبين حالة الاضطراب الذى انتشر على الحاضرين . « ضاعت ؟ أين ؟ أواثق أنت مما تقول ؟ »

وترك الزوجان مقعديهما .. حتى أمسى الجميع واقفين وقد سرت عدوى اللهفة والقلق فى نفوسهم ولاحظت آليس فى دهشة عميقة كيف تركزت جميع الأنظار على الرجل الواقف بجوار الباب .

وقال جيب فى هدوء :

ـ ألا يحسن بنا أن نسمع القصة من أولها ؟

وأخذ كوبر يجلس على المقعد خائر القوى كأنما قد عجزت قدماه عن حمله .

قال جيب :

ـ متى غابت ابنتك يا سيد كوبر ؟

وغمغم كوبر فى حزن شديد :

ـ لست أدرى . كنت أحلم بأنى واجدها هنا ..

ـ متى رأيتها آخر مرة ؟

ـ فى المخيم .. بعد الغداء . استلقيت لأستريح قليلا وغلبنى النوم . وقد قالت : انها ستجمع بعض الزهور . وحينما استيقظت لم أجدها .. وناديتها ثم ناديت حتى بح صوتى .. لكنها لم تعد وكان ذلك قبيل الغروب ، منذ ساعة على الأقل .

ورمق جيب الرجل متفحصا ثم قال له :

ـ ياسيد كوبر . لاداعى البتة لأن تفقد أعصابك ومضاء تفكيرك ان طفلتك فى العاشرة وليست صغيرة ، ومن المؤكد أنها لم تبتعد كثيرا حتى تيئس من العثور عليها . ربما غلبها النوم من طول ماسارت ولم تسمع نداءك . ولعلها الآن فى انتظار من يذهب اليها ويعيدها سالمة .

وأومأ كوبر برأسه ، وقد بدأ يهدأ قليلا ويشعر بارتياح لنبرات صوت رجل الحدود التى تبعث على الاطمئنان .. وغمغم قائلا :

ـ أرجو أن تكون مصيبا .. وأن يتحقق حدسك . ولكنها لم تضل أو تضيع من قبل .

ـ فى ظنى أن خير ماتفعله هو أن تستعيد هدوءك وتقفل راجعا الى مخيمك . ثم تشعل نارا كبيرة بحيث تراها الصغيرة من بعيد وتهتدى بنورها .. وسوف أركب للبحث عنها فانى أعرف هذه المنطقة جيدا .

وقال كوبر :

ـ شكرا .. والحمد لله لوجودك هنا

ـ لاتشغل بالك . سوف نعثر عليها .

ومضى جيب الى التليفون المعلق على الجدار بأقصى الغرفة ، ومضت لحظات طويلة قبل أن يستجيب له الطرف الآخر .

ـ نقطة شجرات البلوط الخمس من فضلك ٢٠ ج .

وهو الرقم الرمزى لمقر الشريف . وبعث بتقرير واف عن الموضوع ، ثم طلب من الضابط المنوب أن يكلف دوريات الطريق الانتباه والملاحظات فى حالة مرور الطفلة الغائبة بهم فى أثناء تجوالها .

ومضى جيب بخطواته الواسعة الى الباب . وفيل فى عقبيه .

***

كان جدار التل ينحدر رأسيا فى شبه هوة عميقة بين مرتفعين .. وعلى قمته جلس الأسد الضخم يطل من فوقه على الوادى البعيد .. كان « بن العجوز » يمضغ الهواء بين فكيه وامعاؤه تصرخ فى أعماقه من شدة الجوع .

وكان يخطو نحو الكهولة خطوات حثيثة بعد أن جاوز العاشرة من عمره ، ومع ذلك فلا يزال قوى العضلات ملك الوحوش المهيب ذا منظر رهيب .

وعندما يرتفع زئيره المروع يخيل للناس أن الأرض قد زلزلت زلزالها ، فتحمل الرياح صوته الرهيب بين جنبات الوادى .. لعدة أميال .

وهو يمارس نشاطه أغلب الأوقات بين آكام وجبال « فارو » وما حولها ، وكانت أمعاؤه تصرخ جوعا ، فالظباء والحمر الوحشـية لم تظهر منذ أيام ، كأنما قد فتك بها جميعا ، ومن أجل ذلك كـان ظهوره فى هضبة الشيطان يربض فوق أعلى صخورها مترددا .

وهو يعلم بالغريزة أن الانسان عدوه طعام غير مستساغ . وطالما تحاشى الاصطدام به فى الماضى وابتعد عن طريقه أما فى ذلك المساء فقد كان جـوعان يبحث عن أى شيء أمامه - ولا بأس من أن يغير من طبيعته وعاداته فالجوع كافر . وفى سكون راح يتحرك بين الظلال نحو الفريسة .

***

التحق « ايرل رستيبو » بمكتب شريف المقاطعة منذ أعـوام [illegible] . بدأ حياته مصارعا يكسب قوته بعرق جبينه وقوة عضلاته . وقد رقى أخيرا رئيسا لقسم « أفاكنتو » .

ولقد سمع بحادث جانى كوبر - من راديو سيارته - عنـدما أذيعت القصة على الهواء حتى تلتقطها جميع السيارات التى تحمل أجهزة استقبال . وكانت النشرة موجهة الى دوريات الطرق حتى تنتشر وتبحث عن الصغيرة الضالة ..

وبالرغم من أن أحدا لم يكلفه شيئا فقد رأى اختفاء الطفلة من صميم واجباته ـ كشرطى ـ بلا ريب ، وربما كان حادثا تافها قليل الأهمية ولا تلبث الطفلة أن تعود لكن شعورا فى نفسه أهاب به محذرا أن الأمر قد يكون أخطر مما يظن .

لقد أدرك فجأة ـ مالم يصل اليه أحد حتى تلك اللحظة ـ وهو أن الطفلة لن تظهر أبدا على الطرق العمومية ، لأنه سلكها فى سيارته دون أن يراها . وقرر أن يمضى الى ممر حنا ليرى كيف تسير الأمور هناك ..

وكان قد اقترب من الأنوار الساطعة باستراحة آل والمبانى المجاورة لها ، حينما التقط الاشارة اللاسلكية فى الرياسة تقول:

« رستيبو السيارة ٦٩ ـ توجه فورا الى ممر حنا وحقق بلاغ اختفاء طفلة .. أجب

وأمسك رستيبو بورق الجهاز وقال مبتسما فى نفسه «حسنا .. سأفعل »

وبعد لحظات كان يقف فى المكان المعد للسيارات بجوار استراحة آل ..

***

ما أن وصل جيب سكوت الى منطقة المناجم حتى استدار فوق صهوة جواده وألقى نظرة على الطريق الذى جاء منه . وكان فى وسعه أن يرى بوضوح لهيب النيران التى تحدد مخيم كوبر ،وشعر بالارتياح ، فحيثما كانت الطفلة فمن المؤكد أنها سترى اللهب المرتفع يهديها الى الطريق الصحيح .

وأهاب به ضميره أن يباشر واجبه الانسانى .. وان حياة الطفلة لا تقدر بكنوز الأرض مجتمعة ولكز جواده حتى تتسع خطاه ، وبدأ الطريق يضيق كلما ارتقى التل صعودا الى قمة « برديليف » .حتى انتهى أخيرا الى أرض مستوية . ومن هنا كانت النار مستعرة الأوار كاملة الوضوح بلهيبها المتوهج . وبجوارها كوبر .

وتوقف الجواد عن السير وانتصبت اذناه ولمح جيب شيئا في الظلام • انها بغلة ريتشي الحمراء • وسرعان ما طرح أفكاره الحزينة جانبا ووضع راحتيه حول فمه صائحا :

ـ هاى ! . أى رتيشى ! . أشعل مصباحك أيها الشيخ . أنا سكوت .

ولم يتلق جوابا ، فلكز جواده للأمام حتى شجرة البلوط الضخمة حيث نصب رتيشى كوحه فى ظلها . لقد اختار جيب هذا الاتجاه متعمدا حتى يقابله ، ولكن لم يجده هناك • وترجل عن جواده وراح يفتش المكان على ضوء مصباحه اليدوى • كل شيء فى مكانه • الفراش والأغطية ملفوفة وأدوات المطبخ فى ركن الكوخ . وبغلته الهزيلة تحت الشجرة • أما هو فلا أثر له ! •

وغمغم حانقا :

ـ أين ذهب العجوز يا ترى ؟ •

كان يأمل مقابلته ليساعدة فى البحث فهو أكثر منه دراية وخبرة بتلك المفاوز الضيقة والسدود الصعبة فى تلك المنطقة ، بل لقد كان يرجو أن يجد الطفلة معه • فاذا به يصطدم بالفشل الذريع فى الحالتين .

وما كان فى استطاعة جيب أن يضيع الوقت فى انتظاره فمزق ورقة من دفتر مذكراته وكتب رسالة قصيرة يخطر فيها رتيشى بحادث اختفاء الطفلة ويطلب منه دقة الملاحظة والمساعدة فى البحث عنها • وثبت الورقة فى مكان ظاهر بجوار الفراش •

وفى تلك اللحظة شق السكون زئير رهيب .. رددت الجبال صداه .. تكرر ثلاث مرات ! . وفزع جيب فى أول الأمر لتلك المفاجأة ولكنه مالبث أن تبسم حينما تبين مصدر ذلك الصوت الباكى الرهيب أنه « الأسد بن العجوز » ولا شك فى ذلك •• وهو قريب جدا من هضبة الشيطان •

وغمغم رستيبو قائلا :

ـ يخيل لمن يسمع زئير « بن » انه هنا فى الغرفة المجاورة . ترى على أى مسافة هو ؟ .

وأجابه آل هوفمان بلهجة الواثق الخبير :

ـ لا أقل من ميلين وربما أكثر ، فالصوت يسرى لمسافات أطول مما تظن . « وبن » يمتاز بحنجرة قوية .

وارتعدت آليس وقالت :

ـ شد ما أنا خائفة !

لماذا يختار « بن » هذه الليلة بالذات ليكون قريبا منا ؟ .

كانوا يقفون على الشرفة الأمامية للمشرب ، منذ اللحظة التى وصل فيها رستيبو يترقبون حدوث تطورات جديدة حتى ينطلقوا الى أى عمل تدعو اليه الظروف .

وأجاب رستيبو :

ـ أعرف أنك تفكرين فى الطفلة ، ولكن لا حاجة الى أن تفزعى . فقد سمعت من جيب أن السباع لاتهاجم الانسان .

وهزت آليس كتفيها فى ضيق وهى تقول :

ـ ان جيب سكوت لا يعرف كل شىء ..

وقال رستيبو وهو يرمق آليس متفحصا :

ـ بل هو خبير بمثل تلك الأمور .

وأسرعت تقول

ـ أنقف هكذا مكتوفى الأيدى لا نفعل شيئا ؟ .

وقال هوفمان :

ثقى بأنا فاعلون ، ولكن تلك الأمور تحتاج لبعض الوقت .

ـ لا أستطيع أن أمنع نفسى من التفكير انى المسئولة عن فقدها . فأنا الذى أخبرت جانى عن تلك الزهور البرية الجميلة التى تنمو على شاطىء الغدير قريبا من الهضبة الصينية . وكل ما أرجوه

من قلبى ألا تكون الصغيرة قد مضت فى تجـوالها حتى هضـبة الشيطان وتاهت بين مسالكها الخطرة .

وغمغم أبوها مهدئا :

ـ لا تحملى الدنيا بهمومها فوق كاهلك يافتـاة . فلا ذنب لك فيما حدث .

وقال رستيبو

ـ فى ظنى أنها ستهتدى الى طريق العودة ، وهناك جيب يبحث عنها ، وفى الصـباح سنبعث فرقا كثيرة من الرجال يقلبون كل حجر فى سبيل العثور عليها .

وسألته اليس :

ـ ألا تستطيع أن تفعل الآن شيئا ؟ .

وقال رستيبو فى صوت حالم :

ـ يحسن بى الذهاب الى بورتال كاينون لأتحدث مع أبيهـا وبهذه المناسبة ما هو الاسم الأول لذلك الرجل كوبر ؟ .

وأجابه هوفمان :

ـ ماتيو . ج . كوبر .

ـ عجبا . ان ماتيو كوبر أغنى الرجال فى جنوب كاليفورنيا وصاحب جميع مؤسسات كوبر .

واستطرد رستيبو قائلا :

ـ معذرة . سوف أتحدث فى التليفون لحظة واحدة .

ثم مضى للداخل . وكان صوته مسموعا وهو يطلب «السنترال» وأخذ هوفمان يذرع الشرفة فى انفعال شديد ويقول لابنته :

ـ تصورى أنه ماتيو كوبر .. أغنى رجال الصناعة فى جنـوب كاليفورنيا ـ معنا هنا منذ أسبوع دون أن يشعر به أحد ؟ تخيلى هذا . انه لقادر على أن يشترى كل هذه المنطقة بما فيها من ماشية ورجال . من مصروف « جيبه » فحسب ؟ .

ـ بحق العذراء يا أبى ! هل كففت عن ذرع الشرفة ذهابا وايابا ؟ لم تعد لى أعصاب تحتمل هذا . انى لشديدة القلق على جانى وهى هناك وحيدة لا أنيس لها فى الظلام الرهيب . وقد تتعرض لأخطار جسام فربما تكون قد سقطت من فوق صخور وأصيبت وتطلب النجدة . أو عضها ثعبان سام أو فتك بها « بن » ، اذا ما استبد به الجوع .

وقال هوفمان باسما :

ـ انه ليس جائعا بكل تأكيد .. والا ما ارتفع صوته بالزئير !.

فأجابته فى سخرية :

ـ شكرا .. لقد جعلنى حديثك أكثر طمأنينة !.

فربت على كتفها فى حنان و هو يقول :

ـ يالك من فتاة طيبة حقا ! ولسوف تجنين ثمار أخلاقك الكريمة .. ماعليك الا أن تصبرى ! ترى هل انتهى رستيبو من التليفون؟.

ومضى داخلا .. تاركا آليس فى ظلام الشرفة وحيدة .

أعاد الشريف « هانك ثورو » المسماع مكانه ، وجلس يفكر فيما بلغه من رستيبو ..

اذن .. فقد فقدت ابنة كوبر وسط الجبال ! ياله من حادث خطير ! وراح يتخيل صحف الصباح وقد تصدرت العنوان الكبير « الشريف يعثر على طفلة كوبر وينقذها من الموت » ..

كان الشريف هانك ثورو رجلا انتهازيا . فقد عمل ثورو وقتاما محاميا دون أية شهرة أو توثيق ، وكان منصب الشريف ـ يشغل حسب الدستور الأمريكى بالانتخاب لا بالتعيين ، وقد استطاع ثورو أن يفوز به لأنه كان دائما يهتم بالعلاقات العامة ويبحث دائما عن الشخصيات المرموقة يتملق بها ويضمها الى جانبه كما يفعل محترفو السياسة فى كل بلد وبفضل أولئك الأصدقاء استطاع أن يحتل هذا المنصب الخطير .

وبدأ يفكر .. ماذا يفعل حتى يضيف اسم ما تيوكوبر الى قائمة أصدقائه بعد أن يأسره ـ بمعروفه ؟ يستدعى فرقة الفرسان طبعا .. وكان يفخر دائما بقوته الراكبة التى تتكون من خمسين فارسا من خيرة الرجال المدربين، ويهتم جدا بحسن منظرهم، وينفق فى سبيل ذلك أكثر من نصف ميزانية الولاية .

وتذكر قوة السواحل ، فمضى الى التليفون وأمر بخروج سرب طائرات الهليوكوبتر ..

***

كانت جانى تهيم على وجهها بلا هدف معين ، ومع ذلك فقد جعلها الرعب تستمر فى المسير الى الأمام .. وخطر ببالها أكثر من مرة أن تقف ثم تجلس فى انتظار أن يعثر عليها انسان ، بيد أنها كانت تجد ذلك مستحيلا فتهب واقفة .. وتمضى على غير هدى. كان الظلام يرهبها .. وأشباح الصخور كأنها الشياطين تحملق فيها تبعث الرعدة فى جسمها الصغير .

وكانت جائعة ، بل أكثر من ذلك أنها كانت تشعر بالظمأ الشديد !

ولذا ، كم كان سرورها عظيما حينما انحدرت من فوق كثيب رملى ووجدت قدميها تخوضان فجأة فى الماء . قناة ماؤها صاف كالسلسبيل يجرى فى هدوء .. وتنهدت من أعماقها وهى تحدث نفسها فى سعادة غامرة : الحمد لله ! هاقد وصلت الى بر السلامة وقادتنى قدماى مرة أخرى الى صديقى الحبيب « غدير لنجر » ! وجثت على ركبتيها وراحت تشرب الماء البارد فكانت كل قطرة ترتشفها تبعث الثقة فى نفسها والطمأنينة الى قلبها !

ولما أطفأت ظمأها ، جلست تفكر فى خطواتها التالية .. سوف نرى ! هذا الغدير يخترق المروج ويجرى الى اليمين بالنسبة لمخيمنا .. وليس أمامى الا أن أسير فى محاذاته حتى أصل مباشرة الى أبى ..

بيد أنها كانت مخطئة في تقديرها ، فالغدير الذى جلست عند شاطئه لم يكن غدير لنجر ، بل قناة أخرى تختلف عنه تماما . . وهى قناة كوشيلا ، احدى المجارى المائية التى تتخلل هضبة الشيطان ، وكانت حقيقة تتصل فى نهايتها بغدير لنجر ولكن بعد مسافة طويلة ومنحنيات وسدود لا حصر لها . .

ولسوء حظها ، انطلقت فى الاتجاه المضاد مولية ظهرها نحو الطريق الذى كان يوصلها الى « لنجر » ولم يمر عليها أكثر من ربع الساعة حتى فوجئت بصوت حوافر جواد تدق فوق الصخور قادمة من حيث أتت . .

وحتى تلك اللحظة ، كان همها الوحيد هو الخوف من أن تضل فى وادى التيه ثم تهلك بين صخوره . . وكادت تنسى جريمة القتل التى شاهدتها وماقد تتعرض له من أذى جسيم لو لحق بها القاتل الأثيم . ولكن الصورة المفزعة مالبثت أن عادت الى ذاكرتها كاملة رهيبة حين أدركت أن ثمة من يتعقبها راكبا جواده . .

لم يكن لديها أى شك فى أن ذلك الشخص القادم خلفها هو الأستاذ وقد عرف مكانها بطريقة أو أخرى وسيقتلها لامحالة ! وراحت تتلفت فى فزع يمنة ويسرة تحاول أن تخترق الظلام باحثة عن مكان تستتر فيه ، واشتدت لهفتها وانزعاجها وهى تسمع من يقترب منها حثيثا . . حتى كادت تلمح شبحه يدنو على مهل ، وتسمع صوت سرجه وهو يئن ويئز من تحته !.

واختارت جانى أقرب الأشياء منها ، مجموعة من شجيرات الغاب على بعد ياردة واحدة من المجرى فاندفعت اليها دون أن تأبه بأشواكها التى خدشت جسمها الفض ، ولا بالمقاومة الشديدة التى واجهتها بسبب كثافة الغاب ، بل شقت طريقها فى صعوبة وألقت نفسها بين الأغصان وهى تلهث فى عنف باردة الأطراف .

وفى نفس اللحظة لمحت ـ من بين فروع الغاب ـ نورا يقترب ، ثم شبح جواد فوقه فارس قادم نحوها . . وبالرغم من انها لم





تستطع رؤية وجهه فانها كانت تعرفه من انحنائه على الطريق فاحصا منقبا على ضوء مصباحه اليدوى ! انه الأستاذ .. ولا أحد غيره :.

وأمسكت جانى أنفاسها .. حتى لا يسمع دقات قلبها ، والجواد يمر على قيد بوصات قليلة من مكمنها .

ومر وقت دون أن يحدث شيء ، فرفعت رأسها ومازال الخوف يشل أعصابها ، وفتحت عينيها فاذا بها وحيدة ، وقد انطلق الفارس بجواده دون أن يراها أو يتوقف .. بل لقد ابتعد مصباحه عنها ثم اختفى بين المنحنيات . لقد نجت !.

وخرجت من بين أعواد الغاب وهى ترتعد وقفلت عائدة .. وتذكرت عندئذ ما سمعته عن الهنود وكيف يسيرون فى المجارى المائية لتضليل أعدائهم واخفاء آثار أقدامهم ، فخاضت فى الماء حتى صدرها وراحت تسير مع التيار الهادىء . وتتعثر فى الأحجار المترسبة فى المجرى ..

ولكن سرعان ما سمعت صوتا جديدا جعل قدميها تتسمران .. وكان الشاطىء من كلا الجانبين مرتفعا وشديد الانحدار على حافتيه تنمو أعواد الغاب الكثيفة .. وتيقنت أن الصوت ينبعث منها لاحتكاك جسم يختلس الخطا نحوها ..

ولم تجد أمامها ــ فى هذه المرة ــ مكانا تختبىء فيه ، فوقفت وسط الغدير وقد تملكها الرعب الطاغى ، تنتظر فى استسلام ظهور « الأستاذ » !

***

ترجل جيب حيث تلتقى قناة كوشيلا بغدير لنجر ، وترك جواده يروى ظمأه .. وراح يسلط مصباحه اليدوى حوله فى بطء يفحص كل شبر من شاطىء الجدولين .. بيد أنه لم يلمح أى أثر يدل على أن الطفلة قد مرت بذلك الطريق .

لم يكن جيب يحمل « خريطة » لتلك المنطقة ، لأنه فى غير حاجة اليها فهو يعرفها جيدا ومحفورة فى ذاكرته .

وكان يعلم أن كل ساعة تمضى توســـع دائرة البحث . واذا ما انقضى وقت طويل ، فلن يمكن اطلاقا تحديد منطقة البحث فى وادى الضياع .

ولم يبق اذن سوى ان يبحث حول الغدير الرئيسى « لنجر » ولابد من أن تسمع حوافر جواده أو تلمح ضوء مصباحه . وعـاد جيب للركوب ، وأدار مقدمة جواده فى حذاء المجرى متجها مـع التيار ! ولم يدر بخلده البتة أن صوت حوافر الجواد وضوء المصباح قد يخيفان الطفلة المسكينة ، ويجعلها تسارع الى الاختفاء .. بل يدفعها الى الهرب أكثر وأكثر !

***

كان بن العجوز سعيدا .. زالت عنه آلام الجوع ، فقداستمتع بلحم وافر ، لم يذقه منذ أيام كثيرة ، وبدأ يخفف من حدة حركاته. وفى ارتياح عميق راح يمضى الهوينى بين الصخور والأشجار .

وكان يتوقف من حين لآخر ليفحص مجموعة من الشجيرات ، لكنه لم يكن يبحث عن طعام ، بل عن مكان ينام فيه ، فهو اذا ماشبع لايفكر فى الطعام الا بعد أربع وعشرين ساعة ، وعنـدئذ يعود الى الجثة فيلتهم باقيها ! وقد حرص على أن يغطيها بطبقة خفيفة من التراب ، لكن اذا ماسبقه اليها وحش غيره واكتشف مكانها ، فلن يسعه فى هذه الحالة الا أن يبحث عن فريسة أخرى . وبرغم انه لم يلجأ لأكل لحم البشر الا بسبب الحاجة الشديدة ، فانه استشعر لذته حتى بدأ يفكر فى تغيير طبيعته القديمة والتى يعرفها عنـه كل الناس .

وكان بن العجوز على قمة مرتفع رملى وحملت له الريح رائحة انسان قادمة من مكان قريب . ولقد فوجىء بقرب عدوه الوحيـد منه ، حتى لقد قفز من مكانه متحفزا .. وراح يختلس الخطا فى حذر ليتبين ماهناك ..

وكانت قناة كوشيلا على خطوات منه ، فتسلل زاحفا على بطنه فى سكون نحو شاطئه الذى نمت عليه أعواد الغاب الكثيفة ، مدفوعا بحب الاستطلاع . وعندئذ رأى بعينيه الواسعتين اللتين تظللهما شعيرات دب فيها المشيب ما أثار فضوله ، فعلى قيد عشرة أقدام منه فحسب « وهو الذى تبلغ وثبته الواحدة ثلاثين قدما » تقف طفلة حتى وسطها وسط القناة !

وتطلع كل منهما الى غريمه . الأسد فى نظراته تساؤل وفضول والطفلة فى رعب جسيم شل أعصابها !

وكان يدور فى خاطر بن العجوز فى تلك اللحظة احتمال أن يكون ذلك « الانسان » الصغير مصدر خطر له . فظل يحدق بالنظر الى الطفلة بضع لحظات ، فلما سكنت حركاتها تأكد أنها لاتقصد به شرا وعندئذ وثب فى رشاقة عبر المجرى الى الشاطىء الآخر وانزلق وسط ميدان الغاب ثم مضى بين الصخور ..

***

تجهم وجه سكوت ، فقد بدأ الاحتمال يقوى فى نفسه بأن مهمة العثور على تلك الطفلة أمست من ضروب المستحيلات بعد أن مضت ساعات كثيرة على غيابها . لقد كان يأمل حتى تلك اللحظة أن ينال شرف اعادتها سالمة لأبيها ، ولكن هاقد انتصف الليل ولايزال يضرب البيداء والقفار ، واتسعت الدائرة التى كان يرجو أن يقابل فيها الطفلة مما جعله يفكر فى العودة وطلب النجدة .

لقد خانه الحظ العاثر ولم يوفق فى مهمته برغم مابذل من كل الجهود فى ذلك السبيل ! وأدار مقدمة جواده ومضى عائدا .. كسير النفس مثقل الضمير !

واشتدت دقات قلبه حين تناهت الى مسامعه أصوات جديدة ، أدرك فى الحال مصدرها .. فقد كان ثمة انسان قادم فى مواجهته وعلى نفس الدرب ، يشق طريقه ـ على قدميه ـ بين الشجيرات فى الظلام ورفع جيب جسمه فوق الركاب وهتف :

ـ هى . من هنا ؟

ولكن جواده متجها نحو مصدر الصوت وهو يسدد مصباحه الى أعلى حتى يراه القادم .

وشد ماكانت خيبة أمله ، حينما تبين أن القادم الذى يقف فى انتظاره بجوار الشجيرات ، ليس جانى كوبر ، بل رجلا يحمل أيضا مصباحا يدويا .. ويتأبط بندقية صيد .

وأخذ يرمق الرجل فى حنق .. كان يعرف أنه أحد الوافدين من المدينة من اعتادوا التجوال بين مرتفعات انكانتو فى عطلات الأسبوع وخلال فصل الصيف ، يجذبهم اليها ما شاع عن وجود معدن اليورانيوم الثمين بين صخورها ، وتذكر أنه كان قد رأى رخصة سلاحه وعلم منها أنه يدعى « كالفين لاورى » فقال له :

ـ معذرة اذا كنت قد سببت لك ذعرا .. ولكن ما الذى جاءك الى هضبة الشيطان فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

ولاحت على وجه الرجل ابتسامة حائرة وأجاب :

ـ أعتقد أن من حقك كرجل الحدود أن توجه لى هذا السؤال .

وأضاف كالفين بعد لحظات :

ـ ان شئت الحقيقة .. فقد كنت أصطاد ..

ـ فى منتصف الليل ؟

ـ لم أستطع أن أنام . فحينما يستهويك الصيد فلن يهمك ان كان ذلك ليلا أو نهارا .

وأشار كالفين بيده واستطرد يقول :

ـ كنت أضرب خيمتى هناك فوق الصخرة السوداء . وسمعت زئير « بن » فخطر ببالى أن أمضى خلفه لعلى أصيده .

ـ أجل . لأنك لن تعثر على بن بتلك السهولة التى تتخيلها . بل سوف تعود بساق مكسورة بكل تأكيد .

ـ اذن فينبغى لى أن أشكر الحظ الحسن الذى جعلك تظهر فى طريقى .

ورمقه بنظرة فضول وأضاف . لم أكن أعلم أنكم تعمـلون فى الليل أيضا ..

ـ من واجبنا أن نعمل فى كل وقت كلما دعتنا الظروف الى ذلك . أما الآن فانى أبحث عن طفلة ضلت الطريق الى مخيم أبيها . فهل قابلتها فى تجوالك ؟

وهتف لادرى فى دهشة :

ـ هل أفهم من ذلك أن طفلة قد تاهت ؟ يا للسماء ! هذا أمر مفزع حقا ! طبعا لم أقابلها ولم أسمع عنها الا منك الآن .

ـ لقد فقدت منذ عصر هذا اليوم أو قبيل الغروب .

ـ وتعتقد أنها هنا فى هضبة الشيطان ؟

وهز جيب كتفيه قائلا :

ـ كان ذلك شعورى .. ولكن لم أجـدها أو أعثر على أى أثر لهـا ..

وراح كالفين يتلفت حواليه فى الظلمة ، وأصابته رعدة خفيفة ثم قال :

ـ مكان رهيب . وخاصة اذا ضاعت فيه طفلة .

وغمغم جيب قائلا :

ـ لا أرى المكان مخيفا الى هذا الحـد ، وان كنت لا أنكر أن هضبة الشيطان تبدو موحشة فى أثناء الليل .. ولكنا سوف نعثر عليهـا .

ـ أوه .. طبعا . انى لواثق من ذلك .. وليتنى أسـتطيع تقديم أية خدمة لك فتجدنى رهين اشارتك !

ـ حسنا . وأنا أرحب بك مادمت لاتشعر بحاجة للنوم الآن وحين قابلتك كنت فى طريق عودتى الى ممر حنا فى طلب فرقة من

الرجال تعاوننى فى البحث . لأنى فى مسيس الحاجة الى كل رجل ..

وفكر لاورى لحظة ثم قال :

ـ ستجدنى طوع بنانك دون شك . وأرى من باب الاقتصاد فى الوقت أن تتركنى هنا أتولى بعض البحث من جهتى .

وهز جيب رأسه وقال :

ـ منذ ساعات وأنا أجوب هذه المنطقة شبرا شبرا . لم أترك فيها حجرا الا قلبته لأنى أحفظها عن ظهر قلب وفى اعتقادى أنك لن تعثر عليها هنا ـ بالاضافة الى أنك فى حاجة الى جواد ، ولن تصل الى أية نتيجة وأنت تسير على قدميك ..

وأجابه لاورى فى هدوء :

ـ صدقت . فالجواد أداة نافعة ومهم جدا فى مثل هذه الأحوال .

وتنهد جيب وقال فى حزن :

ـ ليتنى عثرت على رتيشى واشترك معك فى البحث فهو يعرف هذه البقاع خيرا منى .. لقد مضيت الى كوخه فلم أجده هناك .. ترى ألم يقابلك فى أثناء تجوالك اليوم أو أمس ؟

ـ ذلك المغامر العجوز .. لم تقع عينى عليه منذ أيام .

ـ فى أى شىء تعمل يالاورى ؟

ـ أوه .. ما أنا الا أحد الكادحين فى مهنة التدريس . تخصص فى العلوم الطبيعية والجيولوجيا .

ـ اذن .. فأنت من عشاق الحفريات والصخور ؟ حسنا .. أرى الوقت يسرقنا فى الحديث .. هيا واركب خلفى يا أستاذ ..

وحين أوفت الساعة على الثالثة صباحا كانت قد مضت تسع ساعات كاملة على غياب جانى كوبر ، وخلال ذلك الوقت انتشرت

أنباء فقدها انتشار النار في الهشيم ، وسرت على أمواج الاذاعة وأسلاك التليفون .. وبلغت مسامع جميع الآباء والأمهات في الدور على بعد مئات الأميال ــ كما اخطرت بها جميع الأجهزة المشرفة على الأمن ورجال الحدود والسواحل وطائرات الهليوكوبتر ولا تنس أيضا مخبرى الصحف والتليفزيون .

وخرجت صحف الصباح تحمل النبأ الخطير في صدر صفحاتها فعلم به القاصي والداني في جميع أنحاء القارة الأمريكية .

لقد دخلت جاني كوبر ــ طفلة العاشرة ــ في قلب كل من سمع بالخبر . وأصبحت أشهر طفلة في أمريكا .

أما هي فكانت في تلك اللحظة ترقد وقد بلغ بها الاعياء والتعب منتهاه ، فوق كثيب رملى ناعم على شاطىء قناة كوشيلا ، وغلبها النعاس ، وراحت تحلم بالبيت الدافيء السعيد .

الجمعة

بدأ صباح الجمعة حارا تلفح رياحه الساخنة الوجوه •

ولعل أول من رأى ضوء النهار يبزغ من وراء الأفق ، كان الملازم (تدكوبتاس) من قوة سواحل الولايات المتحدة ورفيقه (بك) والذى كان يشاركه في مقعد طائرة الهليوكبتر • وراح (تد) يصيح فى زميله حتى يعلو صوته على هدير آلات الطائرة قائلا :

ـ لقد بدأ الضياء ينتشر على الكون ، وأرجو أن نعثر عليها قبل أن تلتهب الدنيا وتحرقنا بسعيرها •

وكانا يحدقان بالنظر الى الصخور والتلال التى يطيران فوقها ••

وتنهد « بك » مساعد الطيار وضابط اللاسلكى ثم قال :

ـ أجل •• سوف ترتفع الحرارة تدريجا •• فليرحمنا الله ••

ـ يخيل الى أننا وصلنا الى منطقة البحث •• ماذا ترى يا بك ؟

ـ •• صخور •• وشجيرات كثيرة ••

ـ حقا انك لرفيق دقيق الملاحظة •• ألا من شىء آخر ؟

ـ الطريق الرئيسى • وهنـاك سيارة نقل كبيرة لعلها تحمل طعاما أو شيئا مماثلا ، على ما أظن •

ولوى بك عنقه وهو ينظر من خلال منظاره المقرب وأردف قائلا :

ـ وهناك بعض المبانى متفرقة أيضا •

ـ حسنا سوف نرى •

وبدأ تد يستعد للهبوط ، فى مكان يبعد عن المبانى بحوالى ألف متر .. وقال بك :

ـ سيارات كثيرة بجوار المبنى الرئيسى .. وجياد كثيرة أيضا
وهتف كوبتاس فى مرح :

ـ اذن فهذا هو المكان الذى نقصده بلا ريب . وما علينا الا أن نختار منطقة فسيحة نهبط فيها ..

وبرغم أن الـــوقت كان لا يزال مبكرا ، فان اســـتراحة آل وما حولها كانت تبدو لمن فى الطائرة كأنها خليـــة نحل من كثرة ما حولها من رجال وسيارات وجياد مطهمة فوقها السروج اللامعة .. وكانت بعض سيارات الشرطة تقف جانبا تبرز من مقدمتها هوائيات اللاسلكى ..

وسأل « بك » رفيقه مشيرا الى الهضبة الصينية :

ـ ما رأيك فى تلك المروج الخضراء ؟

وكان مخيم كوبر فى بورتال كانيون يبدو مهجورا بعد أن خمدت النار التى كانت مشتعلة بجواره طوال الليل ، وثمة فارس قادم من بعيد يهبط تل برودلوف ..

وأجابه كوبتاس :

ـ انها بعيـــدة عن ذلك البناء الكبير .. سوف نختـــار مكانا أقرب ..

ـ اذن .. استخدم تليفـونك ومرهم بأن يفسحوا لنـا مكانا هناك ..

ومضى (بك) الى مؤخرة غرفة القيادة وطلب الاتصـــال بادارة الشرطة .

* * *

وما أن سمع آل هوفمان صوت السيارات وهى تتحرك لتفسح مكانا ، حتى هرول مسرعا خارجا من مشربه وفى ظنه أن الســيارة

التى كان قد طلبهـــا بالأطعمة والمشروبات قد وصلت من مخازن « تاباكين » ولما تبين عكس ذلك عاد متحسرا يغمغم فى غضب :

انها فرصـــة العمر تطرق بابى •• فتجـــدونى خاوى الوفاض مكتوف اليدين أرقبها فى حسرة وهى تولى عنى أدبارها ! وسرعان ماتصل الوفود وحشود الناس •• يا الهى !

وتوقف حيث كانت تجلس ابنته وقال :

ـ ما الذى أفعله •• وكيف أتصرف ؟

وكانت آليس قد بلغت حدا من الاجهاد والتعب ، جعلها تفقـــد كل اهتمام • بل كان شعور بالاحتقار ! كانت قدماها تؤلمانها بشدة، ويداها وقد تيبستا من طول ماحملت مصباحها المضاد للهواء • لقد أمضت طول الليل وهى تجوب المنطقة بحثا عن جانى دون أن تذوق النوم أو تعرف للراحة طعما • وهاهى ذى الآن تجلس منهوكة القوى ورأسها بين راحتيها تحاول أن تريح نفسها قليلا •

وقال لها هوفمان :

ـ مما يؤسفنى حقا أنك لا تبدين أى اهتمام بمشاكلى • مع أنها هى مشاكلك أيضا ••

وقطع حديثه دخول الشريف ثورو فى تلك اللحظة وفى عقبيه الضابط رستيبو وكان الشريف يقول :

ـ لن أستطيع انتظار أحد رجال الحدود وقتا أطول من ذلك •، الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك !

وأجابه رستيبو مهدئا :

ـ أعرف ذلك ، وانى لأتوقع أن يظهر (جيب) فى أية لحظة •

ـ عجبا ! أين اختفى ذلك الجندى ؟ ولماذا يغيب عن عمله ؟

ـ لقد أوضحت لك منذ لحظات أنه قد مضى منذ ساعتين فى رفقة ذلك المدرس لعمل جولة فى المنطقة • وقد وعدنى بأن يعود فى وقت مناسب حتى يكون فى استقبالك •

ولكن ثورو لم يكن منصتا اليه ، فقد ذهب الى «الخريطة» الكبيرة المعلقة على جوار المشرب ووقف أمامها متفحصا ثم قال :

ـ لا أعتقد أننا سنحتاج اليه على أى حال ، فكل شىء يبدو واضحا هنا كالشمس • وكما أرى لا يوجد أمامها سوى طريقين : اما خلال منطقة المناجم أو فى الدرب الموصل لهضبة الشيطان • وعلى ذلك سوف نقسم فرساننا فريقين كل فريق يسلك أحد الطريقين ولست فى حاجة لأن أنتظر ذاك الجندى الأحمق نصف ساعة حتى يرشدنى الى ذلك •

وغمغم رستيبو يقول مترددا :

ـ ان مايبدو على الورق ، ليس هو كل الحقيقة ، وليست الأمور بالسهولة التى تتخيلها •

وأجابه ثورو فى حزم :

ـ أنا لا أبحث عن الأمور السهلة ياسيدى • ولكنى أتوقع منكم جميعا شيئا من الحركة والعمل ، وهو ما نحتاج اليه الآن !

وألقى نظرة فى اتجاه ماتيو كوبر ليتأكد أنه قد سمع حديثه الصارم ، ولكن كوبر كان لا يزال منهمكا فى حديثه التليفونى •

وأردف ثورو قائلا :

ـ هيا بنا •• ولنأمر أولئك الرجال بالركوب والانطلاق حالا•

وحين غادرا المشرب ، نهضت آليس من مكانها ومضت خلفهما ، وناداها أبوها :

ـ الى أين أنت ذاهبة ؟

ورمقته بنظرة تعجب وأجابت :

ـ سأقف خارج الشرفة لأرى ما يفعلون •

ـ اننى فى حاجة الى مساعدتك هنا •• هل تتركيننى هنا وحدى أقوم بكل العمل وتتسكعين فى الخارج ؟

وأجابته ببساطة :

ـ وجاني ؟ الطفلة المسكينة ؟ أليست هناك وحدها وسط المخاطر والأهوال ؟

وانفجر غضب هوفمان وهو يصيح :

ـ يا للسماء ! جاني أم أبوك ؟ أيهما أهم فى نظرك ؟

ثم هدأ من حدته وقال لها متوسلا :

ـ أقصد أن أقول : هناك عدد كبير من الناس يبحثون الآن عن الطفلة . وفى وسعك أن تؤدى هنا عملا نافعا خيرا من أن تظلى هكذا نهبا للخواطر والأحزان ، تجولين بمفردك بحثا عنها خلف الشجيرات ..

ـ ومع ذلك ، فانى أريد الذهاب .

وهدر هوفمان فى غضب :

ـ وأنا آمرك بالبقاء هنا . يخيل الى أنك نسيت أنى أبوك ومن حقى عليك الطاعة ـ وما تركت لك الحبل على الغارب فى الماضى الا لفرط حبى لك . ولكن يبدو أن هذه الطريقة لا تنفع معك ..

وأخذت الفتاة نفسا طويلا وقالت فى هدوء :

ـ لست أحب أن أتشاجر معك يا أبى ..

ـ اذن .. افعلى ما آمرك به .

ـ يا لله ! لن أقبل أبدا أن ترغمنى على هذا النحو . لست فى الخامسة من عمرى بل لقد بلغت الواحدة والعشرين ، وهى سن تجعلنى أدرك ما ينبغى أن أفعله ..

وصاح هوفمان :

ـ والآن .. انصتى الى لايهمنى ان كنت قد بلغت مائة عام .

ولمعت عينا أليس ولم تجب ، حيث دخل فى تلك اللحظة رجل بدين يرتدى ثياب السائقين ويقول :

ـ هل السيد آل هوفمان هنا ؟ ان معى شحنة له من مخازن تاباكين ..

ونسى هوفمان غضبه ، وبدا عليه السرور وهو يجرى ناحية الرجل قائلا :

ـ أنا هوفمان • شد ما أنا سعيد برؤيتك يا فتى ! لقد حسبت أنك لن تحضر أبدا • فما الذى آخرك ؟ فى استطاعتك أن تحضر ما معك عنا ••

وقال له السائق :

ـ لقد ظللت مستخدما آلة التنبيه خمس دقائق كاملة دون أن يسمعنى أحد • وثمة سيارات كثيرة تعترض طريقى فى الخارج • ما الذى يحدث هنا على أية حال ؟

ـ مجرد اجتماع مثير • تعال • سوف أفسح لسيارتك مكانا •

وانطلق هوفمان يجرى خارجا •• وسمعته أليس وهو يصرخ فى الجنود يطلب منهم تحريك سياراتهم •

وتنهدت بعمق • انها فى الحقيقة لا ترغب فى اغضاب والدها أو التشاجر معه ، لأنها تحمل له فى قلبها حبا شديدا برغم أخطائه الكثيرة ، بل كانت تظن أنها الوحيدة التى تفهمه ، فهو ليس جشعا أو أنانيا •

ولاحظت أن ماتيو كوبر قد انتهى من حديثه التليفونى ، ويستند الى (الجراموفون) وكأنه يلتمس منه عونا حتى لا ينهار ! فنادته :

ـ ان فرق البحث قد انطلقت منذ برهة ياسيد كوبر ، وطائرة الهليوكوبتر قد وصلت فعلا • فقد سمعتها منذ قليل •

وقال كوبر :

ـ أوه • شكرا !

وبدا كأنه قد أفاق توا من أحلامه وخواطره ، ولم ير آليس الا تلك اللحظة ولأول مرة •

واستطردت تقول :

ـ سوف أمضى مرة أخرى مع أولئك الباحثين • فكلنا مهتمون• وسوف نجدها حالا •

وناداها وهى توشك أن تخرج ، ومضى اليها فى تثاقل وكأنه قد بلغ السبعين .. وقال :

ـ يا آنســـة هوفمان ! هل أستطيع أن أسألك معروفا ؟ ألا يمكنك أن تلبثى هنا قليلا ؟ ان والدة جانى كنت أتحدث معها منذ لحظات .

وتجهم وجهه للذكرى وأردف قائلا :

ـ وهى فى شدة الحزن والاضطراب ، وذلك لاشك أمر طبيعى، وفى طريقها الآن الى هنا وربما وصلت فى خلال ساعتين . وسوف تكون فى حاجة لمن يقابلها .. وكنت أفكر فى امرأة أخرى .

ـ ولكن .. لاشك فى أنك الانسان الذى تحب أن تقابله ..

وأجابها كوبر فى بطء :

ـ كلا . لا أظن أنها تحب رؤية وجهى اطلاقا . أرجوك يا آنسة هوفمان . سوف أقدر صنيعك لو بقيت هنا حتى تقابليها .

وأومأت آليس برأسها فى حيرة وقالت :

ـ حسنا . انى أريد تقديم أية خدمة لك ، ومادمت ترى ذلك.

وغمغم كوبر :

ـ شكرا جزيلا . وسوف أخرج وأتحدث مع قائد الطائرة ..

* * *

نظر لاورى الى ساعة معصمه وقد قاربت السادسة ، وكان قد اتفق مع رجل الحـــدود على أن يتقابلا عند مخيم كوبر فى موعـــد لا يتجاوز السادسة حتى ينضما الى فرق البحث من المتطوعين ورجال الأمن .. ولكن هاهو ذا الموعد قد فات .

وفى الحقيقة ، لم يكن يرغب فى ذلك اللقاء ، بعد أن أدرك أنه قد اقترب من هدفه وأصبح على أبواب النصر .. كان يعلم يقينا أن الطفلة تغادر هضبة الشيطان فمنذ برهة لاحظ أثر قدم صغيرة على

حافة قناة كوشيلا •• بادية الوضوح فى الوحل ، مما أكد له أنها لابد قد سلكت ذلك الطريق •

وبالرغم من أنه لا يعرف متى حدث ذلك على وجه التحقيق ، فانه واثق من أنه لم تمر ساعة أو ساعتان على الأكثر • واذا سبق أن عاقته الظلمة الدامسة عن اقتفاء آثارها فى الليل • فقـــد طلع النهار وأصبح الأمر سهلا ومعالم الطريق واضحة أمامه دون صعوبة أو خفاء •

حقا ، قد ساعدتها الظروف وامتازت عنه بتلك المسافـة التى سبقته بها ، ومع ذلك فسوف يلحق بها لأنه الآن يمتطى جوادا ،على حين تسير على قدميها •

ولمع فى ذهنه خاطر ، جعله يتـــوقف فى مكانه منزعجا ! ترى ما الذى سوف يترتب على تخلفه عن لقاء جيب فى الموعد المحدود ؟ سيثير ذلك عاصـفة هوجاء من التساؤل والدهشـة قد يظنون أن حادثا خطيرا وقع له هو الآخر ، أو على أحسن الفروض ربمـا دار بخلدهم أنه قد اكتشف الطريق الصحيح الذى مضت فيه وما عاقه عن الحضـور الا انطـلاقه وراءها • وفى كلتـا الحالتين سوف تنقلب الدنيا هنا رأسا على عقب وتمتلىء بالخيول والرجال • فتفلت منه الفرصة التى أصبحت منه قريبـــة المنال ، وربما ضبطوه متلبسا بجريمة أخرى تعجل بنهايته على أى حال !

وهكذا ، هداه تفكيره المنظم الى أن يصم أذنيه عن رغبته المجنونة فى اللحاق بغريمته •• ويدير ظهره عائدا بعد أن مضى شوطا طويلا وأصبح على أبواب النجاح •• وهتف غاضبا بصوت مسموع كأنما يحاول اسكات ذلك الصوت الذى كان يعوى فى أعماقه :

ـ سأصبر •• ففى التـأنى السلامة وفى العجلة النـدامة !

وترجل عن ذلك الجواد الذى أعاره له جيب ، وأخفى أثر القدم الصغيرة الموحلة ببعض أوراق الشجر وفحص المكان بعينيه دارسـا معالمه يحصرها فى ذاكرته حتى لاينساها •• وهو يقول :

ـ سأعود .. فلا تحلمى بانتصارك المؤقت على !

ثم أدار رأس الجواد فى اتجاه المروج ..

كان كالفين لاورى مصابا بعقدة الغرور والاستعلاء . يؤمن فى قرارة نفسه بأنه أذكى وأفضل مخلوقات الأرض ، ويحقد على الدنيا لأنها لم تنصفه بل تعطى فى سخاء من هم أقل منه قدرا ومعرفة وعلما ، وكأنما كان الحظ يناصبه العداء ، فلا يكاد يمضى فى مشروع مضمون الربح حتى يفشل . ولقد حصل على اجازة الدكتوراه فى الجيولوجيا بنجاح باهر ، ولكن غروره واستعلاءه وقفا سدا منيعا دون رضاء رؤسائه عنه .. فظل فى وظيفته الصغيرة .. على حين رقى من هم أحدث منه وصعدوا سريعا فوق سلم الشهرة والنجاح .. وضاق صدره فمضى مكرها الى مهنة التدريس .. وفى خياله أحلام سعيدة بأنه الأستاذ الموهوب الذى لا يلبث أن يردد الناس اسمه فى تقدير واحترام . ومع ذلك فقد انهارت تلك الأحلام ولم يفز بعد خمس سنوات من الكفاح الا بمنصب مساعد أستاذ فى احدى الجامعات الأهلية دون أى تقدير أو شهرة ، وكان عقله يصور له أن عمداء الجامعة يكرهونه ويناصبونه العداء .. فاشتعل قلبه حقدا على الناس أجمعين !

وكم من مرة اختلى فيها داخل غرفته ، يجلس على فراشه مفكرا فى حلول لمشاكله . كان يفخر بقدرته على النظر داخل نفسه واستقراء كوامن قلبه ، لكنه كان يؤمن بأنه برغم مواهبه وذكائه المتقد شخص سيىء الحظ وسيظل أبدا مفلسا غريبا عن مجتمعه هدفا لسخرية الخلق .

كان يقضى معظم أيامه جائلا فى جبال انكانتو .. ظاهرا يجمع بعض النماذج لدراساته ، وباطنه ليخلو لنفسه .. بين الصخور والرمال .. يجتر أحزانه وما كان قد شيده من أحلام وآمال !

وكان من بين معداته التى يحتفظ بها فى مخيمه جهاز يدوى لكشف الاشعاع الذرى ، كلفه أكثر من ستمائة دولار . وهذا المبلغ جسيم باهظ أرهق كاهله ، ولكنه كان يأمل أن يعثر فى أثناء تجواله على معدن (اليورانيوم) الثمين . فيتفتح له كنز لا ينضب ،وبذلك

تنتهى كل مشاكله التى يؤمن بأن المال وحده هو الكفيل بحلها ..
ومع ذلك فقد كان يجرى وراء سراب !

واجتاز هضبة الشيطان الى المروج مارا بتلك الصخرة التى كانت تقف عليها جانى كوبر ورأت جريمته وبحركة لا ارادية ألقى من هناك نظرة عليها . وكان كل شىء هادئا وطبيعيا للغاية لا يبدو فى نسيم الصباح مايدل على أنها قد شاهدت منذ أربع وعشرين ساعة فحسب موت انسان بيدى لاورى .

لم يشعر حينئذ بأى أسف أو ندم ! فقد كان رتيشى يضايقه بسخرياته وعباراته اللاذعة ، كان يتعقبه فى كل مكان ليجعل منه أضحوكة النـــاس . وطالما سأله « كم طنا من اليورانيوم عثرت عليها أيها البطل ؟ » أو « ماذا لو أقرضتنى مليونا من الدولارات يا أستاذ ؟ » . سحقا له ! انه ليغمزنى وكأنى مجنون فقد عقله ! وكثيرا ما نبه رتيشى الى أنه لا يحب منه ذلك المزاح الثقيل ، بيد أن العجوز لم يتخل أبدا عن « عادته » ، مما جعل لاورى يتمثـل فيه كل عدائه للناس ، فقتله !

والآن .. عليـــه أن يقتل تلك الطفلة أيضا .. ولـكن لسبب مختلف ! فهـو لا يكره جانى الا لأنها مصدر تهديد له وشـاهدة الاثبات الوحيدة على اثمه الكبير ، ولن يعلم أحد سواها بما حدث سوف يعثر عليها ويخرس لسانها للأبد ، وهو وحده الذى يعرف طريقها دون أى انسان .

وما أن بلغ بورتال كاينـون حتى رأى جيب سـكوت ينتظره بجـوار مخيم كوبر المهجور ، وغمـز لاورى جواده بهمهوزه حتى يسرع ، وتظاهر بالقلق والاهتمام .

وبادره جيب محييا :

ـ أين كنت ؟ لقد بدأنا نقلق عليك ونفكر فى البحث عنـك أيضا ..

ـ فى الواقع انى دخلت مسافة بعيدة فى هضبة الشيطان .. أبعد مما كنت أنوى . معذرة اذا جعلتك تنتظر !.

ـ هل عثرت على شيء ؟.

وهز لاورى رأسه متصنعا الحزن .. وقال له جيب :

ـ ونحن أيضا لم نوفق الى شيء : لقد مسحت رودليف بكل دقة حتى وصلت الجبل الابيض ولم أجد شيئا . ولم أقابل رتيشى أيضا .. ترى ماذا حدث لذلك العجوز ؟.

وأجابه لاورى فى بساطة :

ـ ألا يكفينا هم البحث عن الطفلة المسكينة حتى نضيف اليه هموما أخرى ؟.

ان رتيشى رجل بالغ يستطيع أن يحافظ على نفسه .

وقال جيب وهو يدير جواده الى الطـــريق المـؤدى الى مفترق حنا :

ـ كنت أرجو الاستعانة بخبرته ؟.

وتبعه لاورى بجواده .. على حين أردف جيب قائلا :

ـ هل تعلم أنى ظننت أن ما أخرك عن الحضور الا عثـــورك على أثر الطفلة وانطلاقك خلفها ؟.

ـ فى اعتقادى انها مضت فى اتجاه منطقة المناجم ولم تدخل قط هضبة الشيطان .

ـ ربما .. وعلى أى حال ،ومهما كان الطريق الذى ســـلكته فسوف نعثر عليها .

وأجابه لاورى وهو يخفى ابتسامته :

ـ صدقت .. سوف نعثر عليها .

***

وبالرغم من صياح الشريف ثورو وأوامره ، فلم تتحرك الفرسان وفرق البحث الا فى منتصف السابعة . فقد أحدث هبوط طائرة الهليوكوبتر وتفرقة السيارات لافساح مكان لها ، بعض الارتباك كما ظهرت بعض العقبات الأخرى بسبب سوء التنظيم .

فقد كانت خطة ثورو تقضى بأن تقسم الفرق الى مجموعتين ، كل منهما تتألف من خمسة وعشرين رجلا . أطلق على الأولى الفريق الأزرق - وعلى الثانية الفريق الأحمر وتنطلق الأولى لتمسح هضبة الشيطان على حين تمضى الثانية الى منطقة المناجم حتى تصـــل الى الغابات المجاورة لها . ثم تنقسم كل مجموعة الى فرق صغيرة من رجلين يحملان معهما جهازا لاسلكيا للارسال والاستقبال ،ولما كانت مثل هذه الأجهزة الخفيفة قصيرة المدى لاتتعدى قوة ارسالها ميلين على الأكثر ، فقد زودت المجموعة الزرقاء بجهاز لاسلكى كبير يحمله جواد قوى بكل معداته ، يكون حلقة اتصال بين الأجهـزة الخفيفة ومركز القيادة الذى يشرف عليه ثورو بنفسه فى سيارته ، وكذلك بالطائرة .

وبذلك تكون قد امتدت شبكة عريضـة تغطى تلك المنطقـة الشاسعة وبطريقة مضمونة النجاح . وكانت خطة محكمة بلاريب ، ولكن مع الأسف الشديد على الورق فحسب . ولم ينته الشريف الذكى الى مافيها من نقص يهددها بالفشل .

وكان رستيبو يقف مع الفرسان الذين كانوا يتأهبون للانطلاق .. ينتظر وصول جيب سكوت فى لهفة شديدة . فقد كان يرجو أن يصل قبل تحرك الفرق حتى يستأنس بآرائه . واقترح أمرين ، أثارا غضب ثورو بالفعل ، مما جعله يمسك لسانه ويصمت . فقـد لفت نظر رئيسه الى أن كمية الطعام والماء التى زودت بها القوات غير كافية ، وانه اذا ما امتد نطاق البحث فلن يجدوا طعاما ولا شرابا وبعد ذلك سيكون من المستحيل الاتصال بهم وعندئذ - سيضطرون للعودة دون نتيجة .. وقد أذعن ثورو مكرها لتلك الملاحظـة وأمر هوفمان بمضاعفة المئونة لهم .

أما الملاحظة الثانية فكانت بشأن « الخرائط » المساحيـة والتى لم يفكر فيها أحد « فالخريطة الوحيدة التى كانت توضح معـــالم الجبال والتلال هى المعلقة على جدار المشرب . ولابد لكل فريق أن يحصل على نسخة منها حتى لايضلوا فى وادى التية وحتى يكون تقسيم مناطق البحث محدودا فلا تتعدد الجهود .

وانفجر ثورو غاضبا فى وجه رستيبو قائلاً :

ـ يخيل اليك أن وظيفتك هى خلق العراقيــل فى وجه خطتى أنا أريد أن يبدأ الفرسان فى الحركة فوراً ..

وغمغم رستيبو قائلا :

ـ حسنا ياسيدى . ولكن بدون « الخرائط » ؟

ولوح ثورو بذراعيه فى الهواء مجيبا فى صبر نافد :

ـ اذن هات «الخرائط» لاتزعجنى بعد الآن باعتراضاتك .

ووعد رستيبو الفرسان بأنه سيحصل لهم على «الخــــرائط» المطلوبة وقال :

ـ لست أدرى أين هى الآن . ولكن سأحضرها . وسوف ألقيها عليكم من الطائرة . هيا .. استعدوا للمسير .

وأجابه أحدهم :

ـ نحن على أتم استعداد . ننتظر أوامركم .

ـ اذن .. فأرجو أن اسمع حــــوافر جيادكم . وأتمنى لكم التوفيق .

وبدأ الفرسان يمتطون صهوات جيادهم التى راحت تصـــهل وتتقدم وتتأخر محدثة ضجيجا فى الحلبة المتسعة .. وأقبل ثورو من المشرب مسرعا .. وهو يصرخ :

ـ انتظروا .. انتظروا ! من الذى أمركم بالسير على أى حال؟

وراح يحدق بنظرات صارمة حتى هــدأت ضجتهم ووقفــوا يستمعون .

ـ لدى ما أقوله لكم قبل أن تنصرفوا أيها الرجال . أعيرونى آذانكم . أريد منكم أن تقدروا المسئولية الملقاة على عاتقكم جميعــا فهناك فى مكان ما طفلة فى عمر الزهور ضلت سبيلها بين الجبال . طفلة ضحية للفزع والأهوال ، وتنتظر منا الاسراع فى نجدتها .. وانقاذها من الهلاك . انها مهمة صعبة وكبيرة أيضا .

ودار ببصره الى حيث كان يقف ماتيوكوبر ثم عاد يخاطب رجاله من فوق الشرفة الخشبية العريضة :

ــ لقد أعطيتكم تعليماتي وأصدرت لكم أوامرى فلعلكم فهمتموها وكل منكم يعرف ماعليه وكيف يفعله . لم يبق لى الا أن أقول لكم: عودوا بها . والآن اذهبوا .

وانطلق الفرسان .. كأنهم كتيبة من الجيش الراكب ، ومنهم أصحاب الخبرة والدراية بمسالك الجبال وطبيعة الصخور .

ووقف رستيبو يلاحظ مسيرتهم وبجانبه آلبس هوفمان التى غمغمت تقول :

ــ هل يلزم كل أولئك للبحث عن جانى ؟

وتنهد رستيبو قائلا :

ــ كنت أرجو أن يصل جيب قبل أن ينطلقوا .. فنحن فى حاجة ماسة له ..

ــ وما الذى يستطيعه بمفرده ؟

ــ القيمة ليست فى العدد ياآنسة .. رب رجل واحد يفهم عمله .. خير من مئات !

ومضى الى حيث كان يقف الشريف يتحدث مع ماتيـــو كوبر وقال له :

ــ أعتقد ياسيدى أن فى استطاعتنا الحصول على ماتريد من « الخرائط » اذا طلبناها من مصلحة الغابات ، ثم نلقيها على فرق البحث « بواسطة » الطائرة ..

وأومأ ثورو برأسه .. كأنما هو صاحب الفكرة :

ــ أجل .. أعرف ذلك . فالمسألة سهلة جدا . سوف أكون أنا نفسى فى الطائرة . فلا أحسن من أن تباشر امورك بنفسك .

ولم يبد على كوبر أنه تأثر بذلك النشاط الواضح من الشريف، فقال دون اهتمام :

ـ هل تعتقد أنكم ستعثرون عليها ؟.

وأجابه ثورو يطمئنه :

ـ بكل تأكيد . فليس فى المشكلة أى تعقيد . اننى لأرغب أن ننتهى من ذلك سريعا .

وقال رستيبو :

ـ من المؤسف أن تمضى القوات الباحثة ، قبل وصول كلاب الشرطة مما سيجعل مهمة اقتفائها الأثر عسيرا مع اختلاط الرائحة.

وتساءل ثورو فى حيرة :

ـ كلاب الشرطة ؟.

ـ أجل . ألم تذكر لى فى حديثك التليفـــونى معى أمس أنك ستصدر أمرا بذلك ؟ كان الواجب أن تصل من فترة طويلة .

وتلعثم ثورو قائلا :

ـ آه . أجل حقا كان من الواجب أن تصل منذ وقت طويل . معذرة لحظة !

وهرول الى داخل المشرب حيث التليفون وهو يتطلع حواليه ليتأكد من أن أحدا لا يسمعه ثم أصدر أمره لمدير مكتبه بأن يشرف بنفسه على قيام المختصين بفرقة الكلاب على الفور ودون ابطاء .

***

انطلق الفرسان فى مجموعة واحدة حتى بلغوا المروج الخضراء، ثم انقسموا قسمين حسب الخطة المرسومة . فمضى الفـريق الأزرق فى اتجاه المناجم على حين اتجه الفريق الأحمر الى هضبة الشيطان ومن هناك تفرقوا شيعا صغيرة . وكانت الساعة حينئذ قد جاوزت السابعة صباحا بقليل ..

ذلك فى اللحظة التى راحت جانى تتخبط فيها على غير هدى . وأخيرا قررت أن تمضى فى خط مستقيم شرقا لعلها تصل الى نتيجة

.. بيد أنها كانت فى ذلك مخطئة ، فكل خطوة لها فى ذلك الاتجاه أبعدتها عن الطريق السليم .

ومع ذلك فقد ارتاحت من تسلق الصخور والسير بين شقوق الأرض الصلبة ووجدت نفسها فجأة فوق سطح ذلك الجبل العريض الذى يسمونه « التل الصامت » . ومن هنا أشرفت على وادى فارو وغاباته الكثيفة .

وأحجمت جانى عن استئناف المسير بضع لحظات ، فهى لاتعرف تلك المعالم ولم ترها من قبل ، وفى نفس الوقت ماكانت تستطيع العودة الى هضبة الشيطان حيث يربض ذلك القاتل المخيف فما عليها اذن الا أن تمضى فى طريقها . وراحت تهبط التل من الجهة الأخرى مستمدة من شعورها أنها قريبة من مخيمها ــ قوة غريبة جعلتها تسرع الخطا فى عزم ..

كان الصياد والفريسة .. يسرعان فى اتجاه واحد . ولكن خطوات الجواد كانت بلا شك أقوى وأسرع .. ومن المقدر .. لو استمر كلاهما على تلك السرعة ــ أن يتقابلا قبيل الغروب مالم تحدث تطورات غير متوقعة .

***

وحين وصل جيب سكوت ولاورى كل على ظهر جواده الى ممر حنا ، كان كل شىء هادئا .. وما أن لمحهما حتى راح يعدو فى اتجاههما .. وقبل أن يترجلا بادرهما قائلا :

ــ هل من جديد ؟

وعبس حين هز الرجلان رأسيهما نفيا . ومضى جيب يصعد فى درجات الشرفة ببطء وسأل :

ــ أين ذهب القوم ؟

ــ لقد انطلقت القوة الراكبة منذ دقائق فحسب . هل قابلوك فى الطريق ؟

ـ لا .. فقد جئنا من طريق مختصر عبر « الصخور السوداء » .. هل الشريف فى المشرب ؟

وأخفى رستيبو ابتسامة ظهرت على وجهه وهو يقول:

ـ لا . لقد فضل ركوب الطائرة ..

ورفع جيب حاجبيه دهشة وهو يقول :

ـ أما كان الأحسن لو ظل هنا يباشر الأمور بنفسه ؟.

ولم يشأ رستيبو أن يظهر بموقف من يعارض رئيسه فقال :

ـ حسنا . ثمة أمل كبير فى أن تراها الطائرة فى أثناء تحليقها فوق التلال .

ـ انك لتعرف جيدا ان الأمل فى ذلك أوهى من خيط العنكبوت فلن تلمحها الطائرة الا اذا كانت تسير فوق أرض مكشوفة . أما اذا سارت فى ظل الأشجار أو بين الصخور فلن يراها أحد حتى لو سمعت هدير الطائرة فلن يجديها الصراخ نفعا ولن يسمعها مخلوق !.

ثم التفت جيب مخاطبا لاورى :

ـ هيا نبحث عن طعام لنا .. قبل أن نعود للبحث .

وكانت آليس واقفة خلف نضد المشرب الطويل ـ حينما لمحتهما داخلين ودمعت عيناها بنظرة فرح عندما شاهدت جيب ، ولكنها مالبثت أن شعرت بالخيبة حين رأت عبوس وجهه ـ وسألته :

ـ أين كنت طوال كل ذلك الوقت ؟

وأجابها جيب فى ضيق :

ـ وأين تظنين ؟

كان لايزال غاضبا لأنه لم يلحق بشورو واستطرد يقول :

ـ ما رأيك لو دبرت لنا شيئا من الطعام نبلل به ريقنا !

ورمقته آليس برهة ثم هزت كتفيها وقالت :

ـ حسنا .. اجلسا . وسوف أعد لكما طعاما مناسبا .

ومضت الى المطبخ .

ومضى جيب يسير بين الموائد الى حيث كان يجلس ماتيو كوبر وقد دفن وجهه بين راحتيه وما كاد جيب يسحب مقعـــدا ويجلس أمامه حتى رفع رأسه فزعا . وغمغم قائلا :

ـ أوه . يبدو أن النعاس غلبنى فلم أسمعك حين جئت . هل ياترى قد ..؟

وأجابه جيب فى رقة :

ـ استعن بالصبر . فمازلنا فى أول النهار ، وسوف ننطلق انا ولاورى مرة أخرى بعد أن نتناول فطورنا .

وأخذ كوبر ينقل بصره بين الرجلين ، ثم قال فى صوت خافت حزين :

ـ لست أدرى كيف أشكركما وبقية الرجال .

ورفعوا جميعا رؤوسهم ونظـــروا ناحية الباب الذى فتح تلك اللحظة ودخل منه « فيل لافلن » الذى ماكاد يراهم حتى أسرع اليهم متسائلا :

ـ أمن جديد ياجيب ؟

وهز جيب رأسه وفى نفسه حـــــرج من أن يذكر شيئا عن محاولاته التى باءت بالفشل ، فى حضور الوالد الولهان .. وجلس فيل ثم خلع قبعته ومسح العرق المتصبب فوق جبهته ووجهـــه وهو يقول :

ـ لقد كنت أجمع أكبر عدد من الخيول والرجال ليشاركوا فى البحث . ومع ذلك فما زلنا فى حاجة للمزيد ، ولكن أين الباقون؟

ـ انطلق الفرسان منذ وقت طويل ..

ـ الى أين ؟ هضبة الشيطان ؟

ـ نصف القوة هناك والباقى الى منطقة المناجم .

وهز فيل رأسه قائلا :

ـ وماجدوى ذهابهم الى منطقة المناجم ؟ انها فى هضبة الشيطان فمن المستحيل أن تضل طفلة بين المناجم حتى ولو كانت فى الثالثة من عمرها فالأرض هناك مستوية لاخفاء فيها حتى لو امتد بها المسير الى الأشجار ..

ووافقه جيب بقوله :

ـ ذلك رأيى أنا أيضا . وعلى أى حال .. فهذا هو «الأستاذ» اقد أمضى ساعتين يبحث عنها فى هضبة الشيطان هذا الصباح ولم يجد لها أثرا ..

وقال فيل :

ـ يحتاج الانسان الى أسبوعين . لا الى ساعتين حتى يجوس خلال صخور هضبة الشيطان .

ثم عاد يقول معتذرا بعد أن اكتشف وجود كوبر :

ـ أعنى أن لاورى كان بمفرده . وغير خبير بتلك الدروب والمسالك المعوجة وفى ظنى ان انطلق معك يا جيب ونمسح تلك المنطقة جيدا .

ولم يعلق لاورى على ذلك لكنه قطب جبينه .. وأسرع يقول :

ـ لا . لا . سوف أكون معكما . فقد يستطيع ثلاثتنا عما شىء . فانى معكما للنهاية !

وقال كابو فى هدوء :

ـ وانى معكم أيضا ، وأصمم على ذلك ، فلا يحاول احدكم اثنائى عن عزمى ..

ولاحظ جيب أن فيل ينظر اليه ، وفهم معنى نظراته فهو يفوضه فى الحديث وان كانت محاولة اقناع كوبر ثقيلة على نفسه! فقال :

ـ أخشى أنك لن تستطيع ذلك يا سيد كوبر !

ودفن كوبر وجهه بين يديه فى حسرة وألم ، وسعل فيه فى حزن ..

وأحس الجميع بارتياح شديد لدخول رستيبو فى تلك اللحظة، وكان يقول :

ـ لقد تحدثت توا مع الشريف بالراديو ..

وسأله جيب وهو يقضم قطعة من الخبز :

ـ هل أخبرته بأنى هنا ؟

وأجابه رستيبو مرتبكا :

ـ فى الحقيقة لم أخبره . كان يقول كل شيء حسن . ويبدو عليه أنه يستمتع بالنزهة ..

وقال جيب وفمه مملوء بالطعام :

ـ جميل ! وتلك الأمور التى تحتاج هنا الى اشراف وتنظيم ؟ كلاب الصيد التى ستصل بعد فترة وجيزة ، « والخرائط » التى تحتاج اليها فرق البحث . من الذى سيتولى توزيع كل ذلك؟

وأجابه رستيبو فى هدوء :

ـ الأمر واضح .. أنت الذى ستقوم بذلك .

ـ بل انى ذاهب الى هضبة الشيطان حالا وبمجرد أن انتهى من طعامى .

ـ حسنا .. دعنى أختلى بك لحظة يا جيب !

ومضى الى ركن المشرب حيث يوجد الحاكى . ويتبعه جيب على غير رغبة وهو لا يزال يلوك الطعام بين شدقيه ..

ـ أنصت الى يا جيب . نحن فى موقف لا نحسد عليه . فقد ذهب ثورو وتركنا نتخبط هنا وحدنا .. بل لقد أراد ارسال الفرسان دون طعام كاف أو شراب لولا اعتراضى . وانه ليستمتع الآن بنزهة جوية جميلة . والله وحده الذى يعلم ما سوف يفعله بعد ذلك . فلا سبيل أمامنا والأمور كذلك الا أن تتولى أنت كل شيء ..

ـ أنا ؟ وأنت رئيس الأمن ؟ الرجل الثـــاني الذي ينوب عن الشريف في غيابه ؟

وبدت ابتسامة باهتة على وجه رستيبو :

ـ حقا .. أنا الرجل الثاني ، ولكن مهمتي هي التنفيذ وليس رسم الخطط . أرجو أن تتولى أنت ذلك يا جيب .

واحتج جيب قائلا :

ـ اني أكثر الناس معرفة بمسالك هذه المنطقة ودروبهـــا ، ومكاني هناك مع فرق البحث .

ـ بل مكانك هو حيث تستطيع أن تكون أكثر فائدة .. وهو هنا .

وتجهم وجه جيب وقال :

ـ انك تعرف أن هذا خطأ يا رستيبو . فان ثورو لن يقر أي تصرف مني أو تعديل لأوامره ...

ـ سوف تفعل ذلك بطريقة سياسية حكيمة بحيث لن يشعر بما حدث .

وألقى جيب نظرة الى من بالمشرب ، ولاحظ أنهم يتطلعون اليه مترقبين ، فمضى اليهم بخطوات واسعة قائلا :

ـ يحسن بك يا فيل أن تنطلق أنت والأستاذ وحدكمـــا . ولسوف أظل هنا بعض الوقت .

ووافقه فيل قائلا مشيرا الى لاوري :

ـ سأفعل حالما ينتهي من تناول فطوره ..

وقال لاوري في الحال :

ـ انتهيت منه . هيا بنا .

وتبعهما جيب وهما خارجان قائلا :

ـ ومادمت لن أكون معكما . فثمة ما أحب أن أنبهكما اليـــه وحديثي موجه لك خاصة يا لاوري . لأن فيل يعرف واجباته جيدا . تذكر جيدا أنك وراء طفلة في العاشرة وليست فتاة بالغة رشيدة ،

فينبغى أن تضع نفسك فى مكانها وتفكر بعقليتها . انها تنتعل (صندلا) قد لا يترك أثرا واضحا ، وعليك أن تبحث عن آثار أخرى لها كأغصان مكسورة أو أعشاب وطئتها مثلا . وربما اضطرت الى التخلص من بعض ثيابها للحرارة والشيء المهم هو أن تكون دقيق الملاحظة . وقد تكون نائمة في ظل صخرة أو شجرة أو داخل أحد الكهوف . فتمر بجوارها دون أن تشعر بك أو تراها ..

وأومأ لاورى برأسه مفكرا وقال :

ـ اطمئن .. لن أترك حجرا الا قلبته حتى أعثر عليها .!

ـ انى لا أجد هنا جهازا لاسلكيا يدويا حتى أسلمه لكما . فعليكما اذن أن تعتمدا على نفسيكما . سيرا على مهل دون أن تسرعا بالجياد . ولست أحب أن أبدأ بالقلق عليكما .

وضحك فيل يطمئنه قائلا :

ـ لا داعى لأى قلق . ففى وسعنا أن نحافظ على نفسينا .

ـ اذن . فسيرا على بركة الله .

وتركهما عائدا الى المشرب وفى حلقه غصة لأنه يشعر بأن المهمة فى الأصل مهمته وكان يرجو أن يقوم بها ..

وقال له رستيبو :

ـ أمامنا مشكلة علينا أن نبحث عن حلول لها فمثلا تلك « الخرائط » اذا لم نحصل عليها سريعا ونرسلها لفرق البحث ، فسوف يدورون فى حلقات مفرغة . لقد كنت أفكر .. اذا كانت ادارة الغابات ..

ـ لدى منها اثنتا عشرة خريطة ، ولابد من الحصول على الباقى من مكاتب الادارة فى لوس انجيلوس اذا كان لديهم منها شيء .

ومضى الى « الخريطة » الكبيرة المعلقة على الحائط يتأملها فى غضب .. ثم نادى قائلا :

ـ آليس . لقد سمعت مشكلتنا . ونحن فى حاجة الى عشرين « خريطة » بصفة عاجلة . . فما رأيك ؟ ولاحظ حيرتها .

ثم قال لها بعد برهة :

ـ أنت رسامة . أليس كذلك ؟

وفهمت ما يقصده فغمغمت تقول:

ـ أنا رسامة .

ـ لا بأس .

وقالت له فى صبر نافد : اذا كنت تريد أن أفعل شيئا فلماذا لا تطلبه صراحة ؟

ـ كما تشائين . . .

وخرج الى الشرفة يلطف حرارة وجهه بنسيم الصباح البارد . وفى تلك اللحظة سمع أحد الجنود يناديه :

ـ يا سيد سكوت . رستيبو يطالبك فى سيارة اللاسلكى.

ومضى جيب مع الجندى وهو يسأله فى لهفة :

ـ هل عثروا على الطفلة ؟ أين ؟

ـ لا . لقد اتصل الفريق الأزرق بنا ، وأخطروا بالعثور على منظار مقرب فى منطقة المناجم.انه جديد وليس عليه أى صدأ . لابد أنه منظار الطفلة . وهم فى سبيل ارساله مع أحد الرجال على حين هم يتقدمون لاستئناف البحث . وقد تركت رستيبو يحاول الاتصال بالشريف .

وركل ماتيو كوبر اطار سيارة الشريف فى غضب وقال:

ـ لماذا ننتظر هنا اذن . . وقد عرفنا الآن مكانها ؟

وأجابه جيب :

ـ لم نتأكد بعد من تلك الأخبار .

واتكأ على تصادم السيارة محاولا الانصات الى ما كان يقوله رستيبو للشريف بطريق الراديو وانفجر كوبر صائحا :

ـ انها أنباء صحيحة بكل تأكيد !

لقد كان العثور على ذلك المنظار ـ فى نظره ـ شـــيئا بالغ الأهمية . انه دليل هام يقودهم الى الطفلة الموشكة على الهلاك .. لماذا لا يفعلون شيئا بحق السماء ؟

ـ انه منظار جانى ..

ـ لدى هوفمان مئات من ذلك النوع يبيعهـــا للســـائحين وأطفالهم ، وقد لا تكون ابنتك هى الطفلة الوحيدة التى ضـــاع منظارها ـ كذلك علينا أن نعيد تنظيم قواتنا على الفور ، وسحب الفريق الذى فى هضبة الشيطان حتى تضاعف الجهود فى منطقة المناجم ومسحها مسحا شاملا . ولكنها لن تفعل ذلك حتى تتعرف يا سيد كوبر على ذلك المنظار وتؤكد لنا بما لا يدع سبيلا لأى شك أنه منظار جانى . والا نرتكب خطأ فاحشا ..

وعض كوبر على شفته حتى كاد يدميها .. وراح يذرع المكان ذهابا وايابا وهو يغمغم فى ضيق :

ـ ولماذا يتأخر ذلك الجندى فى الحضور ؟

ونصحه جيب بأن يركز بصره فى الطريق فى اتجاه (بورتال كانيون) .. ولابد أنه سيظهر بعد قليل ...

واعتدل حين خرج رستيبو من السيارة وسأله:

ـ خيرا ؟

ـ الطائرة فى الطريق الى هنا ..

ـ حسنا .. وهل صدرت اليك أوامر ؟

ـ حالما يتعرف كوبر على ذلك المنظار ، فسوف آمر الفريق الأحمر بالذهاب والانضمام الى الفريق الأزرق ، ليتقابلا عنـــد تل (برودلوف) .

وقال جيب معترضا :

ـ هذا خطأ ، فرغم أن المسافة تبدو قصيرة على «الخرائط»، فانها طويلة جدا وتستغرق ساعتين نحن أحوج الناس لهمـا .. وأقصر طريق لذلك هو أن يصـــنعوا دورة مختصرة عائدين الى المروج . اتصل به مرة أخرى و ...

وصاح كوبر مشيرا الى الطريق :

ـ ها قد وصل .

وشاهدوا فارســا قادما مسرعا على متن جواده .. وانطلق كوبر يجرى اليه ملوحا بيديه « هى » .

وقال رستيبو لجيب :

ـ تعال ..

وأسرعا خلف كوبر . وما أن شاهدهم الفارس حتى هدأ من سرعة جواده وتوقف عندهم . ولم يضيعوا وقتا فى التحية ...

وسأله كوبر وهو يلهث :

ـ أين هو ؟

وأخرج الفارس المنظار اللامع الصغير من جيبه .. واختطفه كوبر وهو يحملق فيه بلهفة شديدة ..

وران الصـــمت على الجميع .. برهة من الوقت .. وأخيرا همس قائلا :

ـ انه منظارها !

وسرعان ما اصابته رعدة شديدة .. فقد كان ذلك أكثر ممـا يتحمله . وسأله جيب :

ـ أواثق أنت ؟

وغمغم كوبر وهو يتحسس المنظار فى رفق وحنـان .. انه قطعة مما كانت تحمله ابنته الحبيبة .

ـ بالأمس فحسب كانت قد قطعت الحمالة وربطتهــا لها . انظروا .

والتفت جيب الى رستيبو قائلا :

ـ انه اليقين اذن . لقد كنت مخطئا ، بعد أن ثبت الآن انهـا مضت فعلا الى منطقة المناجم .

ـ هيا الى السيارة واتصل حالا بالفريق الأحمر فى هضبة الشيطان ، ومرهم بأن مكان اللقاء هو منطقة المروج .

وقطب حاجبيه واستطرد يقول :

ـ من المؤسف حقا أننا لا نستطيع الاتصال بفيل أو الأستاذ ولكن لا حيلة لنا فى الأمر . وأيضا بعد أن تنتهى من ذلك اطلب من آليس أن تسرع فى نقل « الخرائط » .. ولتركز اهتمامها على منطقة المناجم .

وسأله رستيبو فى دهشة :

ـ وأنت ؟ ما الذى ستفعله ؟

ـ ســأركب على الفور وأمضى الى المروج لأتأكد من انطلاق الفرسان فى الاتجــاه الصحيح ، وربما أتيحت لى فرصة لقـاء رتيشى . لا تقلق .. سوف أعود حالا ـ لأكثر من ساعة .

وسأله ماتيو كوبر فى أمل :

ـ وأنا ؟

وتردد جيب لحظة . كان يعلم بأن الخير فيما لو مضى بمفرده، ولكنه لم يقو على صد كوبر وقد قرأ فى ملامحه معنى التوســل والرجاء .. فقال :

ـ ابحث لنفسك عن جواد . وأسرع .

وقد ملأ نبأ اختفاء طفلة ماتيو كوبر صدر جميع صحف الصباح

ولكن لم تبدأ الوفود تتقاطر الا بعد الثامنة صـــباحا . وكان أول الفيث هم مندوبو الصحف ، وهم يمثلون جميع دور الصحافة فى المدينة (وكان ثلاثة منهم يتبعون مؤسسة واحدة ، واثنان يتبعان مؤسسة أخرى) ، وبالرغم من أن المنافسة بين المؤسستين كانت شديدة ، فقد وصلوا جميعا فى سيارة واحدة ، لأنهم فى الأصل أصدقاء بصرف النظر عن طبيعة العمل .

لم يهرب الشريف ثورو من الصحفيين ، عزوفا عن الاعلان أو الدعاية لنفسه .. فهو يحلم أن يكون نجم الســـاعة الذى يتردد اسمه فى كل مكان . ولكن لأنه خشى أن يحرجوه بأسئلة لم يكن يعرف لها جوابا وفضل أن يرجىء حديثه معهم حتى يتأكد مما استجد من تطورات فى القضية .

وحبس نفسه داخل سيارته مع رستيبو مستفسرا منه عن كل شىء ، وسأله عن تعرف كوبر على المنظار وما اتخذه حيال سحب القوات وسأل مساعده :

ــ أين والدها ؟

ــ لقد انطلق توا مع جيب ليقابلا الفريق الأحمر .. هناك عند المروج .

وقطب ثورو حاجبيه وقال :

ــ انتظر . لـقد أمرت بأن يمضى الفريق الأحمر عبر جبـال (برود لوف) حيث ينضم الى الفريق الأزرق ...

وأجابه رستيبو فى ارتباك :

ــ نعم يا سيدى . ولكن كان الطريق الثانى أقصر ويوفر وقتا برغم ما قد يبدو على « الخرائط » و ...

وقاطعه ثورو فى غضب :

ــ هل أفهم من ذلك أنك تركت لذلك الجندى اصدار أوامر تخالف أوامرى ؟ لماذا لم تستشرنى ؟

ـ ان جيب يعرف هذه المنطقة جيدا . وكنا فى عجلة والوقت ضيق .

ـ الوقت .. الوقت ! ان المسألة تتعلق بالنظام يا سيدى المساعد ! يبدو لى أن من الضرورى تسوية بعض الأمور هنا ..

وقال له رستيبو فى هدوء :

ـ مازال فى الوقت متسع اذا شئت أن تتصل بهم لاسلكيا .

ـ ليس هذا ما أتحدث عنه ـ المسألة أننى هنا الرئيس المسئول ، وعليكم جميعا أن تفهموا ذلك . وخاصة ذلك الجندى ـ يا للسماء !

لماذا لا يبقى هنا حتى يتلقى الأوامر منى ؟

وعاد رستيبو يقول له فى رقة :

ـ انه يحاول العثور على مغامر عجوز له خبرة واسعة بتلك المنطقة . فهو يعتقد اننا مازلنا فى حاجة الى رجال يساعدوننا فى البحث .

وكأنما شعر ثورو بأنه تمادى فى هجومه فغمغم قائلا :

ـ أما عن هذا فهو محق . فهاهوذا النهار يوشك أن ينتصف ولم نحرز أى تقدم .

ولمح فى وجه مساعده استنكارا ودهشة فاسرع يقول :

ـ لم أقصد أن أهون مهمتنا ، فلاشك أن حياة الطفلة أهم كثيرا ..

وقال رستيبو :

ـ ثمة جهات أخرى يمكن الاستعانة بها . البحرية مثلا ..

ـ لقد فكرت فى ذلك ، ولكنهم مشغولون الآن بمناورات يجرونها فى أعلى البحار . وهناك ادارة الغابات ، فلماذا لا يبعثون لنا برجالهم ولهم بعض الخبرة فى تلك الأمور ؟

ـ انهم مشغولون ايضا فى محاصرة ذلك الحريق الكبير الذى شب فى غابات برنادينو وحتى اذا كانوا قد أتموا السيطرة عليها الآن فسوف يكونون فى غاية التعب والاجهاد .

وتطلع ثورو إلى المصورين اللذين كانا يجلسان على درجات الشرفة وقال :

ـ فى استطاعتنا أن نطلب متطوعين من كل مكان .. وسرعان ما نجد لدينا مئات منهم .

***

ابتسم كالفين لاورى فى ارتياح .. فيده لا تزال ثابتة لا تهتز وفى وسعه أن يصيب الهدف مرة أخرى ..

وكان فيل لا ظن قد تركه حالما وصلا هضبة الشيطان ، ليمضى بمفرده حذاء « غدير لنجر » حتى نقطة التقائه بقناة كوشيلا .. ومن هناك انطلق الى حيث كان قد شاهد أثر قدم الطفلة على ضفة القناة وهو يحث جواده على الاسراع لأنه واثق من معرفته للطريق الذى سلكه . ولن تمض سويعات حتى يجدها وينتهى من كل شىء .. رصاصة واحدة لن يسمعها غيرها ، وقبر صغير يختار له مكانا خفيا فى وادى التيه .. وبعد ذلك تنجلى عنه تلك المخاوف التى تؤرقه . ولن يلبث موضوع اختفاء الطفلة جانى حتى يذهب فى طى النسيان ! . مثله مثل عشرات القصص المماثلة ..

واذا كان لاورى قد أحس بشىء من الأسف ، فلم يكن ذلك اشفاقا على الضحية ، بل لأن الناس لن تعرف ما عليه من مكر ودهاء .

وامتطى جواده . والسعادة تملأ جوانحه والسرور يهز أعماقه . وما كاد يدور حول المنحنى الذى كان قد لمح فيه أثر القدم حتى تجهم وجهه فقد اكتشف وجود عدد من الناس .. بالقرب منه .. كانت ثمة جياد قادمة نحوه من الجهة المضادة ! . وجذب



لاورى عنان جواده فى عنف وراح ينظر حواليه فزعا لعله يجد مكانا يختفى فيه أو يذهب اليه حتى يتحاشى لقاءهم .

ولكنه لم يجد شيئا من ذلك وسرعان ما ظهر القادمون .

ورأى فارسين يرتديان الملابس الرسمية ، أدرك لاورى أنهما من رجال الأمن ، مما أزعجه قليلا ، ولكنه ما لبث أن تذكر أنهما جزء من المجموعات التى انتشرت للبحث فى هضبة الشيطان . فهتف بهما مرحبا :

ـ هالو .. هل حالفكما التوفيق ؟

وفوجىء الفارسان برؤيته ، ووقفا أمامه يرمقانه فاحصين بنظرات رجل القانون الصارمة .. وسأله أحدهما فى حدة :

ـ ما الذى تفعله هنا ؟ .

ـ مثلما تفعلان أيها الرجال ! . أبحث عن الطفلة .. واسمى لاورى .

فقال أحدهما لرفيقه :

ـ يخيل الى انى رأيته فى المشرب .. لعلـه صديق لرجل الحدود .. أو شىء من ذلك .

وأومأ لاورى برأسه :

ـ هذا حق .. فجيب سكوت هو الذى أرسلنى هنا .. لانه يعتقد أن هضبة الشيطان كثيرة المتاهات ولابد من مضاعفة الباحثين فيها ممن سبق لهم الجوس خلالها ...

ولم يبد على الرجلين كثير اقتناع فقال له الأول :

ـ اذن . عد معنا ! .

وهتف لاورى مذعورا :

ـ أعود معكما ؟ .

وأشار الفارس الى الراديو الذى يحمله وقال :

ـ لقد اتصلوا بنا منذ لحظات بعد أن تأكد لهم أن الطفلة لم تسلك هذا الطريق وعثروا على منظارها فى منطقة المناجم ، وصدرت الأوامر بأن نمضى جميعا فى ذلك الاتجاه ..

وشعر لاورى بقلبه يهبط فى حذائه ! . لقد حفر لهم حفرة ثم وقع فيها ! فهو الذى كان قد ألقى بذلك المنظار فى منطقة المناجم حتى يغرر بهم ويركزوا بحثهم فى ذلك الاتجاه ، فيتركوا له الميدان بينه وبين الطفلة فسيحا . ولكنه لم يتوقع قط أن يجروه معهم ! .

وغمغم يائسا :

ـ حسنا . انها لأخبار مشجعة حقا .

ـ هيا بنا ..

ولم يسع لاورى الا أن يدير جواده ويمضى خلفهما حانقا .. كان يشعر بمضاضة فى حلقه وكل خطوة تبعده عن هدفه .

ما كان أمامه سوى سبيل واحد .. الانفصال عنهما حتى يستعيد حريته فى متابعة الطفلة ، ولكن لابد أن يتم ذلك فى حرص كى لا يرتابوا فى أمره . ولكن كيف ؟ .

وحالفه الحظ ، فقد تعثر جواده فى تلك اللحظة ، فوقف فى مكانه ثم ترجل عن الجواد . وسأله أحدهما :

ـ ماذا حدث ؟ .

وتظاهر بأنه يفحص قدم الجواد الأمامية اليسرى وقال :

ـ يبدو كما لو دخلت « زلطة » فى حافره .. صبرا يا جوادى حتى أحاول اخراجها ..

وبدأ الجندى يعود بجواده ليساعد لاورى ولكن صوتا انبعث من الراديو يقول :

« القائد الأحمر ينادى الفرقتين الثالثة والسادسة الحمراء .. أين أنتم يا رجال ؟ » .

وغمغم الجندى يقول :

ـ نحن الفرقة السادسة .

ثم أمسك بجهازه وأجاب :

ـ نحن قادمون .

ـ حسنا . أسرعوا ! .

وقال لاورى :

ـ اذا كنتما قد تأخرتما ، فلماذا تواصلان السير وسوف ألحق بكما بعد أن أفحص قدم الجواد ؟

وتردد الفارسان برهة وكل منهما ينظر لرفيقه متسائلا . وأومأ أحدهما برأسه موافقا :

ـ حسنا . سوف نستمر فى سيرنا ، وفى وسعك أن تلحق بنا عند المروج .

ـ وهو كذلك .

ووقف ينظر اليهما حتى غابا فى المنحنى . ثم تنهد فى ارتياح . وعاد يمتطى جواده .. مستديرا فى اتجاهه الأول . حقا كان مأزقا عويصا ولكنه استطاع بفضل ذكائه أن يفلت منه ، بل لقد أفادته تلك المقابلة كثيرا حين علم بأن هضبة الشيطان قد خلت منهم جميعا وأصبحت يداه طليقتين ، ودون رقيب .

***

كانت اطارات السيارة الفاخرة تحك بأرض الطريق الخرسانية واستمر تصرخ قائلة :

ـ ضاعت .. ضاعت .. ضاعت .

وبرغم ذلك راحت تحاول التهدئة من قلقها « تقول لنفسها » :
انها بخير .. جانى بخير ..

وطالما وصفها ماتيو كوبر ببرود العاطفة وعدم الاكتراث بمشاعر الآخرين وانغماسها فى السهرات واهمالها رعاية بيتها . وكان ذلك سبب الفرقة بينهما ، ولكن ماتيو كان مخطئا . فحين تزوج أجمل وأثرى فتيات كاليفورنيا لم تستطع أن تغير من طباعها فى يوم وليلة . ولو تعمق قليلا فى دراستها لفطن الى أنها برغم جمود مظهرها تحمل بين جوانحها قلبا مرهفا مع كثير من الكبرياء يحول دون ظهورها بمظهر الضعف ، أو انعكاس مشاعرها على وجهها .

وحاولت أن تدير صمام مذياع سيارتها لعلها تسمع شيئا من الموسيقى تنشغل بها . فاذا بصوت المذيع يقول :

« وحتى لحظة اصدار هذه النشرة مازالت جانى الصغيرة والتى لم تتجاوز العاشرة ضائعة بين متاهات جبال « انكانتو » وجدير بالذكر انها وحيدة ماتيو كوبر صاحب أكبر مصانع كالفورنيا المشهور وكانت قد مضت بعد ظهر أمس تتجول لقطف الزهور وحدها » .

وضاعفت من سرعة سيارتها حتى أوشكت أن تطير على الأرض . وصدرها يخفق بشدة وقلبها يكاد يثب من بين ضلوعها .

ولمحت علامة الطريق تشير الى مفارق حنا .. ترى أى أنباء تنتظرها ؟ .

وانحنت فوق عجلة القيادة تحاول أن ترى شيئا من خلال الزجاج الأمامى ، فلم تشاهد ــ سوى سيارات الشرطة كما لاحظت وجود احدى الطائرات جاثمة عن قرب . فأوقفت سيارتها حذاء استراحة آل ..

ولم تجد أحدا فى انتظارها ومضت تصعد فى درجات الشرفة .. سيدة ــ طويلة القامة رشيقة أنيقة الثياب ! .

وتوقفت قليلا فى فتحة الباب تنظر للداخل وفى صدرها بارقة أمل . وتناهى الي سمعها أصــوات قوم يتحــدثون وكان بعضهم يجلسون أمام نضد المشرب الطويل يدخنون ويحتسون القهوة ، وهناك فتاة تجلس الى مائدة وأمامها أوراق .. وثمة رجل يتحدث فى التليفون المثبت فى الحائط .. ولكنها لم تر الوجه الصغير الذى تبحث عنه ، وانتابها فجأة شعور من التعب والارهاق حتى كادت تهوى على الأرض .

والتفت أحد الجالسين أمام النضد الطويل فلمحها ، وسرعان ماوثب من مكانه هاتفا فى سرور :

ـ ياللسماء ! هل انت السيدة .. كوبر ؟.

وغمغمت فى وجل وهى تتطلع فى عيونهم :

ـ أجل . هل عثرتم عليها ؟.

وكان قد تأبط ذراعها يدفعها الى احدى الموائد الخالية ويقول :

ـ تعالى هنا ، واجلسى . أنا جورج مدهيسان محرر صحيفة « البريس » ..

وفى نفس اللحظة رات . « استر » اثنين من حاملى أدوات التصوير يأخذان موقف الاستعداد ..

ولمعت المصابيح الفوسفورية فأغمضت عينيها فى استياء وهى تهتف « أوه ! ».

ـ متى علمت باختفاء ابنتك ياسيدتى ؟.

ـ أهذه هى المرة الأولى التى تضيع فيها يا مسز كوبر ؟.

ـ أحقيقة مايشاع عن وجود خلاف بينك وبين زوجك ؟.

واندفع رجل ممتلىء الجسم قائلا :

ـ معذرة يا مسز كوبر .. أنا الشريف هانك ثورو . المسئول الأول عن عمليات البحث هنا .

وهمست فى يأس بالغ :

ـ ألم تعثروا عليها حتى الآن ؟ .

وأجابها ثورو مشجعا :

ـ اننا فى سبيل العثور عليها ، وقد عرفنا الطريق الصحيح الذى سارت فيه .. ومنذ لحظات عثر رجالى من الفرسان على احدى لعبها ..

وترنحت قليلا .. ولمحت المصورين يستعدان لالتقاط صورة لها حينما تسقط على الأرض .. فتشبثت بأقرب الموائد اليها وتماسكت بصعوبة وقالت :

ـ لو سمحتم لى بالجلوس لحظة . لقد قطعت مئات الأميال وأنا أمام عجلة القيادة ..

وقال الصحفى جورج فى سرعة :

ـ تعال أيها الشريف ثورو .. وقف بجانبها حتى نلتقط لكما صورة الموسم ..

وعندئذ أقبلت الفتاة التى كانت « استر » قد شاهدتها ترسم فى بعض الأوراق .. وصاحت بهم حانقة وهى تدفعهم بيديها :

ـ اتركوا السيدة وحدها ! الا ترون ما هى فيه من حزن وضيق أليست لكم انسانية أو ذره من احساس ؟.

وتردد الرجال لحظة وقد غلبتهم الدهشة . وكان جورج هو الذى انضم للفتاة فقال :

ـ الحق فيما تقولين يا آنسة . وانى لأعتذر لك بحرارة يامسز كوبر لما حدث منا ، فقد جرفتنا الأحداث رغما عنا ، هيا بنا يا قوم واتركوا السيدة تسترد أنفاسها .

وراحت السيدة كوبر تنظر اليهم شاكرة ، وخاصة الفتاة التى أنقذتها من بين براثنهم . وحدثت نفسها بأن جانى حين تكبر ستكون لها نفس الملامح والقد الرشيق .. ثم غمغمت تقول:

ـ شكرا لكم .

وفى الوقت الذى انسحب الرجال عنها ، أخذت آليس بذراعها وقالت لها :

ـ انا آليس هوفمان .. وقد كلفنى زوجك مهمة رعايتك .

وعندئذ تذكرت استر زوجها وقالت

ـ أوه .. أين هو ؟

ـ انطلق مع فرق البحث .. وسوف يعود بعد قليل .. وأنت ؟ كيف تشعرين ؟

ـ أنا بخير .. ولكنى متعبة قليلا .

ـ تعالى معى ..

وأخذتها من يدها وخرجت بها للشرفة وهى تردف قائلة :

ـ لقد أعددت غرفة لك فى الخلف من هذا البناء . ويحسن أن ترتاحى فيها .

وأومأت برأسها تجاه الصحفيين :

ـ أجل .. فأنا أفضل الانفراد بنفسى ، على أن تخطرينى اذا ما استجد شىء . أرجوك ! .

ـ سوف أهتم بذلك . فاطمئنى .

وكانت ثمة مجموعة من الغرف الصغيرة متجاورة خلف بناء المشرب الكبير لكل منها بابها الخاص ، وفتحت آليس احداها وهى تقول :

ـ هذه الغرفة لك وحدك . وغرفتى هى التى تجاورك مباشرة ،

ولديك جرس كهربى .. وسوف تجديننى طوع يديك فى أية لحظة ! .

وتلفتت استر حولها . ولاحظت أنها غرفة صغيرة امتلأ فراغها بفراش كبير وصوان مناسب ، لكنها مريحة ونظيفة ، ونظرت الى الفتاة شاكرة تقول :

ـ انك لكريمة حقا .

ـ اننا هنا جميعا فى خدمتك ونبذل كل جهدنا فى سبيل اسعادك .

وحين استدارت منصرفة ، أمسكت استر بذراعها وقالت :

ـ هل تعتقدين أنهم سوف ...

ثم صمتت خشية أن تعكس هواجس قلبها وتفضح للناس مخاوفها فتنهار أعصابها كلية ..

وأجابتها آليس :

ـ ثمة حشد كبير من الرجال الشجعان يفعلون المستحيلات لاعادة ابنتك ..

وفى بطء وبحركة لا ارادية جثت استر على ركبتيها بجوار الفراش وأسندت رأسها اليه ثم راحت تدعو الله بكل جوارحها ..

***

لم تكن جانى ـ فى وادى التيه ـ مجهدة أو متعبة فحسب ، بل كانت تشعر بالجوع والعطش أيضا ، وقد مضت أربع وعشرون ساعة منذ تناولت آخر طعام لها .. كذلك لم تجد أمامها ـ وهى تضرب فى البيداء ـ أى مجرى أو نقطة ماء أمامها منذ اللحظة التى عبرت فيها قناة كوشيلا فى وسط هضبة الشيطان .

وتذكرت ذلك العدو الأثيم فارتعد جسمها فرقا ! . الأخطار تحيط بها من كل جانب ، الطبيعة بقسوتها والانسان بغدره وخسته ،

ولكن خوفها من الأستاذ كان أهون من نظرها من هلاكها فى تلك المجاهل المقفرة التى لا حياة فيها ولا نبات مما يضعف احتمال عثور أى انسان عليها ..

وكانت قد وصلت فى تجوالها الى سفح ذلك الجبل الذى لمحته وهى عند « التل الصامت » ولم تكن تعلم أنهم يطلقون عليه اسم « الرأس الفضى » وفكرت فى أنها لو تسلقته فربما وصلت الى الارتفاع الذى ترى منه شيئا يرشدها الى بورتال كانيون حيث مخيم أبيها أو حتى الهضبة الصينية التى تعرفها ، أو لعلها على الأقل تكتشف موردا للمياه تطفىء به ظمأها ..

وكانت فيما يبدو فكرة صائبة . فقد لفت نظرها درب ضيق مطروق يلتوى صاعدا الجبل .. ومضت فيه وهى تنقل خطواتها بصعوبة بالغة صاعدة وخلعت « سترتها » الحمراء وحملتها على كتفها بعد أن ثنت كمى قميصها الى أعلى .

وبلغت أخيرا .. مكانا فسيحا شاهدت فيه حفرا كثيرة واسعة وعميقة ، أدركت مما كانت تشاهده فى التليفزيون أنها حفريات مناجم ، ولاحظت أنها قديمة ومهجورة من وقت طويل " وأطلت برأسها فى احدى تلك الحفر فلم تر الا ظلاما مما جعلها تستأنف الصعود الى قمة الجبل وقد اتسع الدرب الملتوى أمامها قليلا .

ووصلت مرة ثانية الى مكان فسيح ، لكنه كان فى هذه المرة من صنع الطبيعة وليس من صنع الانسان ، فالأرض كانت طباشيرية بيضاء ليس فيها أى أثر لشجر أو نبات . وفى آخرها لمحت جانى كهفا طبيعيا يختلف كثيرا عن فوهات تلك المناجم التى شاهدتها من قبل . وهناك انتهى الدرب الذى كانت تسير فيه .

وترددت جانى فى دخوله ، ولكن قرص الشمس الملتهب فى كبد السماء يرسل نارا تحرق جسمها الصغير ، أرغمها على أن تتجاهل مخاوفها حتى تستظل بسقف يحميها من ذلك الجحيم ، وتريح قدميها ولو بضع دقائق .

ولم تلمح في الظلام شيئا مريبا . ووجدت المكان رطبا هادئا ، ولكنها ما كادت تخلو داخله حتى تجمد جسمها من الفزع ، فقد تناهى الى سمعها صوت غمغمة خافتة تنبعث من الداخل ، ثم سمعت بعد ذلك مباشرة صوتا آخر .. حفيف شيء خشن كأن شيئا قد بدأ يتحرك من أعماق الكهف متجها اليها ..

ولم تسعفها ساقاها المرتجفتان على الجرى أو الهرب . لقد أدركت أن نهايتها قد قربت فأغمضت عينيها وصرخت . وتسمرت قدماها في انتظار ذلك الشيء لينشب فيها أظفاره ! .

***

تمهل جيب وكوبر بجواديهما قليلا ريثما وصل الفريق الأحمر عائدا من هضبة الشيطان لينضم الى الفريق الأزرق حيث اتجهت الظنون وقويت الاحتمالات على أن الصغيرة تهيم على وجهها في منطقة المناجم .

ومن الغريب أن كليهما كان يؤمن في قرارة نفســـــه بأن من المستحيل أن تسلك الطفلة ذلك الاتجاه وكان ذلك الشعور واضحا بجلاء على محيا الأب المسكين ، فالعقل والمنطق يؤكدان ذلك ، ولكن ماذا يقول أمام ظواهر الأمور وقد عثروا على منظارها هناك ؟ .

كذلك كان جيب يشعر بالأسف ، وحدث نفسه غاضبا بألا حاجة للتشاؤم ، وأن الرجال ينطلقون في الاتجاه السليم وبعد قليل سوف يعثرون على جاني سليمة ويعيدونها لأبويها ، ثم يرتاح الجميع من ذلك الهم والبلاء ! .

وظل كوبر فوق صهوة جواده غارقا في لجة من أحزانه وقد اشتد به الارهاق . وتأمل في شرود ، تلك الطفلـــة الصغيرة .. وحيدته الضالة . وقال له جيب :

ـ سأنظر من بالداخل .

ثم دلف الى المشرب وكان ممتلئا بالناس وزوجاتهم وأطفالهم .

وما كاد يراه رستيبو الذى كان يقف مع رجل بدين الجسم حتى أدرك جيب بالبديهة أنه الشريف ، وتصافحا وكل منهما يرمق غريمه بنظرات متفحصة لا تخلو من عداء . ثورو يرى لأول مرة جندى الحدود الذى لا يتحدثون الا باسمه وله من الصفاقة والجرأة بحيث يتحدى أوامره ويعدل فيها كما يشاء وجيب ينظر الى الشريف الذى طالما سمع عن جهله فى الأمن ، علاوة على شدة صلفة وغروره محتميا بمركزه الوظيفى الكبير .

وبدأ ثورو هجومه بقوله :

ـ بحق الشيطان أين كنت ؟ .

وغلت دماء جيب للمفاجأة ، بيد أنه سرعان ما تنبه الى الشرك الذى يعده له الشريف حتى يستفزه أمام جمهور كبير من الناس .

فأجابه فى هدوء :

ـ كنت أوجه الفرسان الحمر الى أقصر طريق يسلكونه للمناجم ثم صعدت تل برودلوف لأبحث عن مغامر عجوز يقيم هناك أعتقد أن له من الخبرة الطويلة ما يفيدنا ..

ـ انى أبحث عنك منذ الفجر ويخيل لى انك لا تقدر أهمية مقابلتى .

ـ لم يدر بخلدى انك فى حاجة الى ..

ـ حقا .. لم أكن فى حاجة اليك ولكنى حين أدركت أنك تصدر الأوامر التى تناقض أوامرى رأيت أن أدعوك لنسوى بعض الأمور معا ..

ـ أى أمور ؟

ـ لتعرف مثلا أينا الرئيس هنا .

وأسرع رستيبو يقول حتى يحول دون فضيحة تنذر بالهبوب :

ـ من رأيى أنه لم يحدث أى تناقض لأوامرك أيها الشريف ، واذا كان جيب قد أحدث فيها تعديلا طفيفا ، فقد حدث ذلك عفو

الساعة وبحسن نية لأنه يعرف هذه البقاع جيدا واقتصادا للوقت الذى كنا فى أشد الحاجة اليه . ونحن جميعا نشعر بالمسئولية الملقاة علينا .. والمهم فى الأمر هو النتائج لا الوسائل .

وقبـــل أن ينطق أحدهما بما يفيـــد النفى أو الايجاب ، غير رستيبو مجرى الحديث فسأل جيب :

ـ هل عثرت على رتيشى يا جيب ؟

وقابل جيب محاولة رستيبو فى السلام بهزة من كتفه وأجاب :

ـ لا .. لم يعد حتى الآن الى كوخه ، الأمر الذى لا أفهمه ، فما سبق له أن اختفى بهذا الشكل ، والشىء الذى يدهشنى أيضا حصانه الأحمر الذى كان مربوطا ليلة أمس ، فلما ذهبت اليوم لم أجده هو الآخر ! .

وتساءل ثورو :

ـ منذ متى ورتيشى غائب ؟ .

فلما أخبره رفع حاجبيه دهشة وقال :

ـ آه .. منذ غابت الطفلة ؟ هه ؟ لعلنا نفهم من ذلك شيئا .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ حسنا . اذن غاب الكهل فى نفس الوقت الذى اختفت فيه الطفلة .. انى لأعرف أولئك المغامرين الكهول ، ولا أطمئن لتركهم مع شاة ميتة ، فتصوروا ما قد يفعله مع طفلة ؟ .

وهتف ماتيو كوبر الذى كان قد اقترب منهما دون أن يلحظه أحد :

ـ ما هذا الذى تقوله ؟ هل تظن أن ...

وسعل ثورو فى حرج شديد وغمغم معتذرا :

ـ لا .. لا .. لم أقصد ذلك . ولكنى . فحسب كنت أفكر ، ولا أعتقد اطلاقا أن ...

وتدخل جيب قائلا :

ـ وأنا أوافقك على ذلك الاعتقاد ، فالرجل الكهل قد يكون غريب الأطوار ..

وصمت برهة ثم قال فى نبرات تحمل معنى السخرية من ثورو :

ـ ومع ذلك .. اذا كان لديك أى شك أيها الشريف ، ففى وسعنا أن نتصل بالرجال الذين يبحثون عن جانى ، حتى يركزوا جهودهم فى العثور على رتيشى ..

وتضرج وجه ثورو وقال :

ـ لن نفعل شيئا من ذلك .. وما كنت الا أبحث الأمور من كل الزوايا ولتمض فرق البحث فى طريقها مهما طال بهم البحث .

وأدار لهم ظهره وراح يتأمل « الخريطة » الكبرى عابسا مقطب الجبين :

ولمح جيب آليس وهى تخرج من المطبخ ، فى نفس اللحظة التى شاهدتهم هى أيضا ، فمضت اليهم ولكنها لم تتحدث اليه ، بل الى كوبر قائلة :

ـ لقد وصلت زوجتك يا سيد كوبر . وكنت قد وعدتها باخبارها حالما تعود ، فهل أذهب اليها ؟ .

وكأنما ذلك النبأ قد ضاعف من ارهاق كوبر . وغمغم فى بطء :

ـ سوف أذهب اليها أنا بنفسى .. أين هى ؟ .

ـ لقد خصصت لها غرفة مستقلة فى الخلف .. الغرفة رقم ٢ على اليمين .

ـ شكرا لك .

ومضى على مهل .. كأن كل خطوة يخطوها تقتضى منه مزيدا من الجهد .

وكان جيب يرجو أن يقول لآليس شيئا .

وتحول الى الشريف ورستيبو وكان ثورو يقول :

ـ ستعود الطائرة بالطعام « والخرائط » فى نحو ساعة ، وسوف يكون الفرسان عندئذ فى هذه النقطة «وأشار الى الخريطة» فيأخذون حاجتهم قبل أن يتفرقوا .

وأسرع جيب يقول :

ـ كلا .. ليس هناك .

وعبس ثورو متسائلا :

ـ ولم لا ؟ . انه المكان المناسب . ولن أدهش لو علمت بعثورهم على الطفلة فيه . وتستطيع أن ترى ذلك بنفسك على «الخريطة» .

وقال رستيبو :

ـ لقد صدرت الأوامر بذلك فعلا يا جيب .. هذا اذا لم يكن لك رأى آخر .

ـ أجل « فالخريطة » هنا لا تشير الى ما يملأ ذلك المكان بالذات من الثعابين السامة .. وهى شديدة الخطر على الجياد ، فوق أنها ستحركها من جحورها وتثيرها بشكل لا يمكن تصوره .

وصمت جيب لحظة وهز رأسه قائلا :

ـ من رأيى أن تلقى حمولتها للمجموعات بعد أن تنتشر .

وقال ثورو فى حدة :

ـ ذلك ما كنت أقوله مرارا وتكرارا .. لو أنك كنت هنا من أول الصباح لتبدى لنا ملاحظاتك بما لك من خبرة ، بدل أن تمضى هنا وهناك .. ومع ذلك فاننا لو أخذنا باقتراحك لأمرنا الطائرة بالبقاء حيث هى فترة أطول ، وقد وعدت المصورين منذ لحظة بالتقاط بعض الصور من الفضاء ..

ـ ان أى جواد يمضى الى ذلك المكان الذى أشرت اليه ، سيعود اليك وقد عضه ثعبان سام وفى استطاعة رجلين أن يسيرا على اقدامهما دون خوف لأنهما يرتديان أحذية طويلة .. أما الجياد فلا ، وبطبيعة الحال الأمر متروك لك فهى خيولك . ولكن من رأيى أننا قد نواجه متاعب نحن الآن فى غنى عنها .

وعض ثورو على شفته وقال بصوت مسموع :

ـ الجياد ! .

ثم أردف موجها حديثة لهما :

ـ حسنا .. سأتصل بهم وأحذرهم ذلك المكان .. وكما قلت اذا مضى اليه رجلان على الأقدام .. ترى هل يرضيك هذا ؟ .

وتركهما ثم انصرف الى سيارة اللاسلكى .

وغمغم رستيبو :

ـ هل فهمت الآن ما كنت أقصده ؟ .

ـ أجل . ولست أدرى كيف سينتهى الأمر بيننا .

لقد بذل جيب كل ما فى وسعه ليمسك زمام أعصابه ، بيد أنه كان يغلى فى الداخل وبوده لو نفس عما يجيش فى صدره والا انفجر ! .

ولاحت منه نظرة فرأى آليس جالسة ، وحين اقترب منها رفعت رأسها فجأة .. فلما رأته قالت :

ـ أوه .. هيه يا جيب ! .

وسألها جيب فى اقتضاب :

ـ هل انتهيت من رسم « الخرائط » ؟ .

ـ أجل . ومنذ لحظات وجيزة وقد أعطيتها .

ـ اذن . هل أستطيع أن أحصل على شيء من الطعام ؟ .
ـ طبعا تستطيع .
ـ شكرا .

***

سرعان ما عثر ماتيو كوبر على الغرفة رقم ٢ فطرق بابها . وسمع صوت زوجته من الداخل يقول في انزعاج :
ـ من هذا ؟ .
وهمس من وراء الباب يقول :
ـ أنا .. ماتيو ..
وحاول ادارة مقبض البـــاب ، لكنه كان مغلقا من الداخل ، ولم يدهشه ذلك ، فقد كانت تلك حالتهما دائما .
وسمحت له بالدخول وقد تنحت عن طريقه حتى لا يقترب منها . وعيناها تومضان ببريق الاتهام والغضب .. وسألته في صوت أجش :
ـ لم تعثر عليها حتى الآن ؟ .
كان السؤال في صورة الجواب ، أو الحقيقة . وأومأ برأســه موافقا :
ـ كلا .. لم نعثر عليها .
ـ اذن . لماذا أنت هنا ؟ لم لم تمض للبحث عنها ؟ .
وتنهد كوبر قائلا :
ـ هذا ما ينبغي فعلا . ولكنهم لم يسمحوا لي به .
ـ نعم . هذا ما ينبغي أن تفعله . فأنت الذي تسببت فيه باهمالك . أنت الذي أضعتها ولا أحد غيرك مسئول عن هلاك جاني .
وأومأ كوبر برأسه في حزن وقال :
ـ أجل .
وهمست تقول :
ـ وكيف طاوعك قلبك ؟ كيف طاوعك قلبك أن تلقي بها في التهلكة ؟ لقد ألقيت بي وراء ظهرك وأهملتني فلم أبال أو أهتم .. ولكنها ابنتك وقطعة منك ثم تسمح بأن يحدث لها كل ذلك ؟ لقد

كنت دائما تسمنى بالاهمال وتعتبر نفسك الرجل الكامل الذى لا يخطىء أبدا .

انى لم أخذل جانى وكنت دائما بجوارها أحميها وأدفع عنها كل سوء ، فلما سلمتها اليك وديعة غالية فى عنقك ولبضعة أيام، تركتها تضيع !

ولم يشعر ماتيو كوبر بأى غضب أو استياء لما كانت تكيله من اتهامات .. فهو يعلم أنها لم تذكر الا الحقيقة ، وكان فى حاجة لمن يعكس له آلامه الدفينة فى نفسه ويوجهها له علانية .

وحملقت استر فيه كالذئبة التى فقدت وحيدها وقالت فى حدة :

ـ أتمنى لو أقتلك .

وأجابها كوبر فى هدوء :

ـ ليتك تفعلين ! فاذا لم تعد جانى فالموت أفضل من الحياة دونها ! صدقت يا استر . انها غلطتى على أى حال .

وارتفع صوتها حتى بلغ حد الصياح :

ـ اذن لماذا لا تحاول البحث عنها ؟

ـ أما أخبرتك ؟ انهم لم يدعونى أذهب معهم . لايعتقدون أنى «كفء» لتلك المهمة ، ولست ألومهم فى ذلك ..

وجلست أستر فوق حافة فراشها وغمغمت :

ـ شد ما أعجب لك ! أضعت ابنتنا .

ولم يجب ، مكتفيا بايماءة من رأسه وكأنه يوافقها على كل ما قالته . أما استر فقد فرغت جعبتها من الشتائم القارصة .. وساد الصمت بينهما فترة وأخيرا استدار خارجا ويده على المقبض قائلا :

ـ أرجو أن يبلغوك ما يستجد من أحداث .

ـ أذاهب أنت ؟ أليس لديك ما تقوله لى ؟

وصمت لحظة ثم قال :

ـ فيما أعتقد . ليس لدى ما أقوله ، لقد أصبت كبد الحقيقة فى كل حرف نطقته ! ولكن كنت آمل أن تقدرى ما أنا عليه من حزن وأسى ، وأن تكون الأحداث قد غيرتك قليلا .

وانفجرت فيه قائلة :

ـ وكيف كنت تتوقع منى ووحيدتى مهددة بالموت ؟ هل أقدم لك وافر شكرى ؟

ـ لا . لم أقصد ذلك ، بل ظننت أنك ربما طامنت قليلا من كبريائك ولو مرة ، وأظهرت قليلا من شعورك الانسانى ، وبهذه الطريقة لعل كلينا يجد فى شريكه بعض السلوى والعزاء «وتنهد» ولكنى أظن نفسى أحمق اذ أفكر فى ذلك . فقد باعدت بيننا الخلافات التافهة ، فنحن حيث كنا ولا تغيير !

وحال دون اجابتها صوت ذلك العويل الحاد الذى تطلقه سيارة الشرطة ، يقترب من المبنى فهبت واقفة وهمست فى فزع :

ـ ما هذا ؟

ـ أظنها سيارة الاسعاف ، لا تنزعجى ، فقد سمعت انهم طلبوها لتقف على استعداد .. اذ ربما يحتاج اليها أحد .

وفتح الباب قائلا :

ـ سوف أعود بعد فترة ..

وتركها واقفة مستندة الى الباب .

ثم ان الهليكوبتر طارت لتقوم بجولتها الثالثة فى الثالثة مساء ولتلقى « بالخرائط » التى رسمتها آليس على المجموعات الثنائية التى انتشرت على شكل مروحة فى الربوع الحافلة بأشجار الشوك والعوسج ومنطقة الغابات الملاصقة للمناجم . وكان قد تأكد للجميع عندئذ أن فترة البحث قد تمتد وقتا أطول مما كانوا يقدرون وربما

استمرت حتى الصباح ، وحتى تلك اللحظة لم يعثر أحد على أثر الطفلة الضالة ، ماعدا ذلك المنظار الصغير ! ومع ذلك فقد مضوا يشقون طريقهم فى الأرض الصعبة وفى عزيمة صادقة .

***

تلقفت آذان الشريف ثورو حـكاية « بن العجوز » ، فانطلق مسرعا الى حيث كان رستيبو فى سيارة الشرطة وأبلغه نبأ اكتشافه الرهيب قائلا فى حزن :

ـ هل بلغك نبأ ذلك الأسد الضخم الذى يجول مطلق السراح بين الهضاب وتلك التلال ؟

ـ اذا كنت تقصد «بن العجوز» ، فقد سمعت به .

ـ ولماذا اذن لم تتخذ أى اجراء ؟ هل من واجبى أن أبحث أنا نفسى عن كل كبيرة وصغيرة ؟

ـ لأنى لا أعتقد أنه خبر هام .

ـ وى ! خبر هام ؟ كيف تقول ذلك وهم يؤكدون أنهم سمعوه يزأر على مقربة من هنا الليلة الماضية .. أى بعد اختفاء الطفلة بفترة وجيزة !

وقال له رستيبو فى صبر :

ـ هذا النوع من السباع لايأكل الانسان ، وربما جذبته رائحة رجل ميت حين يستبد به الجوع ولكنه ـ وبكل تأكيد ـ لا يهاجم الأحياء ، وخاصة طفلة صغيرة .

وصمت ثورو ثم غمغم قائلا :

ـ على أى حال ، لست على خبرة بمثل تلك الأمور ، ولا شك فى انى سعيد لسماعى ذلك .

ونظر رستيبو فى ساعته وقال :

ـ لا أفهم لماذا لم تصل كلاب الصيد حتى الآن ! سوف تظلم الدنيا بعد قليل .

ـ قال لى ويجلند انها قد تتأخر .

ـ ولـكن أربعا وعشرين ساعة .. لو أنك أمرت بارسالها منذ الليلة المـاضية .

وتوقف عن الكلام حينما رأى مابدا على وجه ثورو .. وأدرك أنه قد غضب لمـا وجهه اليه من نقد وتعريض فليس من واجب المرءوس أن يفعل مثـــل ذلك مع رئيس تجب طاعتـه . وأردف رستيبو فيما يشبه الاعتذار ..

ـ أقصد أن تخلفهما عن الوصول يحتم علينا الاستعانة بمزيد من الرجال .

ـ لقد أرسلت فعلا فى طلب الاحتياطى من الفرسان وسيصلون فى الصباح .

ـ انهم لا يزيدون على اثنى عشر فارسا ، اذا تجـاوزنا من يكون فى الأجازات المرضية والاعتيادية ، وهـــذا العدد غير كاف .

وقال ثورو :

ـ كنت أفكر فى احتياطى الهنود ..

وأشار رستيبو بيده شرقا فى اتجاه الصحراء قائلا :

ـ انهم فى الجهة الأخرى من التـــلال . وبالطبع اذا وصل رجالنا فى بحثهم قريبا منهم ، فسوف ينضمون اليهم قطعا .

ـ لا أدرى ما أفعل بعد كل ذلك ..

ـ مازال لدينا معتقل المذنبين .

وهز ثورو رأسه استنكارا ـ ولـكن رستيبو استمر يقول

ـ أنا أدرك ما فى ذلك من مغـامرة ، وربما استاءت الوزارة منا لذلك التصرف .. ولـكن هل أمامنا غير ذلك ؟ بل ســيكون مركزنا أمامها أشد سوءا لو أننا فشلنا فى العثور على جانى .. سريعا أو هلـكت قبل وصولنا لها ..

وكان رستيبو موفقا فى صياغة حديثه .. فقد وضع الشريف بين أمرين كلاهما مر ، ففكر قليلا وفى النهاية سأله عابسا :

ـ وكيف تعتزم اجراء ذلك ؟

ـ سآمر باحضارهم هنا فورا ، مع حراسهم طبعا ، وينطلقون للبحث منتشرين صفا واحدا وعلى أبعاد متساوية ، وفى اعتقادى أننا سنفيد منهم كثيرا ، وعلى أى حال أنا مســـتعد لتحمل كل مسئولية ..

وأجابه ثورو فى دهشة :

ـ ماذا تقول ؟ لا ياســـيدى . فأنا المسئول عن كل شيء .. تستطيع أن تستدعيهم فى الحال وتعرضهم علينا هنا .

***

لما مرت اللحظات الرهيبة دون أن يحدث شيء فتحت جانى عينيها فى بطء ، وتبين لها أن ذلك الصوت الذى سمعته لم يصدر من وحش كاسر ، انما انبعث من بين شفتى عجوز فى مدخل الكهف قد بلغت من العمر عتيا ـ كان وجهها أشبه بجمجمة ميت يكسوها جلد رقيق أسمر ، تركت عليه الأعوام الطويلة عشرات التجاعيد والأخاديد كتلك الشقوق التى تراها فى أرض لم تر المـاء منـذ مئات السنين ! . وتناثر حول الرأس شـعر ملبد كثيف أبيض ، وكانت صاحبته تحركه يمينا ويسارا كأنما هى ضعيفة البصر تريد أن تحدد موقع القـادم من لهثات أنفاسه .. ثم رأت جانى بياض حدقتيها ..

واستمرت العجوز تقول كلاما غير مفهوم من بين فكين خاليين من الأسنان ، وكان الـكلام فى صيغـة سؤال لا يحمل أى شر أو تهديد مما طمأن جانى وبعث الارتياح فى نفسها الخائفة الوجلة ، واستشعرت فى أعماقها أنها لن تكون مصدر أذى لها .

وخطت نحوها فى حيرة وقالت :

ـ هيـــه !

وحملقت العجوز فيها بعينيها البيضاوين ، وقدرت جانى أنها ربما بلغت من العمر مائة عام على الأقل ، وقالت جانى فى دهشة :

ـ أنا .. جانى كوبر .. تائهة !

ولم يبد على العجوز أنها فهمت شيئا ، وأجابتها بغمغمة بلغتها الغريبة ، وأعادت جاني ذكر اسمها مرتين ، وعندئذ فطنت الى أن قومها لابد يتحدثون لغة أخرى ، ودهشت الطفلة لذلك ، فكل الناس هنا يتحدثون الانجليزية الا ...

وهتفت تقول :

ــ آه . أنت هندية اذن !

وكانت جاني تحلم برؤية أحد الهنود .. أصحاب الأرض الفعليين ، فأردفت في سرور :

ــ هندية حقيقية ، وحية ترزق .

ويبدو أن العجوز فهمت ذلك ، فقد أومأت برأسها ، ووضعت راحتها فوق صدرها وقالت في بطء :

ــ همى .. شاه !

ــ همى شاه ؟ أهذا هو اسمك ؟ أم لعله اسم قبيلتك ؟

وعادت العجوز تقول :

ــ همى .. شاه !

وقالت جاني وهي تشير الى صدرها :

ــ لابد أن هذا اسمك .. أما أنا فاسمى جاني ..

ورددت العجوز اسمها في صوت خافت :

ــ جاني . جاني .

وابتسمت كلتاهما للأخرى في ود ..

وهكذا تم التعارف بين مخلوقتين جمعت بينهما الأقدار على غير موعد ، مع اختلاف السن واللغة واللون وحقا قد تعطلت لغة الكلام ولكن لا عجب اذ تآلفت الأرواح وتخاطبت القلوب في انسانية خلاقة رائعة ..

وقالت جاني :

ــ جلت بعيدا عن مخيمنا .. فضللت الطريق ولا أستطيع العودة ..

وكان واضحا أن الهندية لا تفهم ما يقال لها ، بل أخذت تردد كلمة همى شاه فى غباوة ، وفوجئت الصغيرة بالقلق والحيرة والضياع مرة أخرى ، فلم يسبق لها أن واجهتها مشكلة مماثلة .

بيد أنه ما لبثت أن عاودها الشعور بالارتياح ، فلا شك أن وضعها الحالى أفضل كثيرا من ذى قبل حيث كانت معرضة للموت ان لم يكن من الوحوش الضارية فمن الزواحف السامة ، وأهم من ذلك الجوع والظمأ ، أما الآن فقد وجدت المأوى والرفيق ، وما دامت هناك حياة فسوف تجد بكل تأكيد حاجتها من الطعام والشراب .

وعادت الطفلة تقول للعجوز وهى تمسك بيدها وتشير الى بطنها وفمها :

ـ طعام . ماء .

ويبدو أن الهندية قد فهمت ، فقد هزت رأسها ومضت خارجة من الكهف منحدرة مع الدرب الجبلى وجانى فى عقبيها ، وعلى بعد نحو مائة متر تفرع الدرب الضيق يسارا ، وهناك لمحت الطفلة عينا من الماء تجرى بين الصخور ، ففرحت بها فرحة موسى بأمه ! وراحت تمتص ذلك الماء العذب الصافى بملء شدقيها . شربت حتى أوشكت معدتها أن تنفجر ، فلما استوت على ساقيها شعرت بغثيان شديد ولكن العجوز سارعت اليها وأخذت تمسح بيدها الرقيقة على شعرها حتى هدأت قليلا ، وعادت تبتسم فى ضعف .

ومضت بعد ذلك صاعدة الجبل فى صحبة همى شاه متجهين للكهف ، ولكن الهندية العجوز تجاوزته واستأنفت الصعود الى القمة ، حيث كانت بعض شجرات البلوط ترتفع بأغصانها المورقة وكأنها تناطح السحاب ، ووقفت جانى ترقبها فى دهشة وهى تفتش بين وريقات بعض الشجيرات الصغيرة البرية .. النامية هناك ، ثم قطفت بعض الزهور .. وقدمتها للفتاة مشيرة لها بأن تأكلها ..

وكانت للزهور رائحة فاكهة «الفراولة» التى طالما أحبتها جانى ، وكان الجوع قد اشتد بها وبرغم أن مذاقها لم يكن مقبولا فانها لم تتردد فى أكلها ، حتى تسكت صراخ أمعائها .

وفى نفس الوقت مضت همى شاه تجمع بعض البقول والحبوب الجافة المتساقطة وتحفر فى الأرض بحثا عن نوع من الدرنات والجذور وعاونتها جانى فحملت عنها كل ذلك فى «سترتها» الحمراء . وعادتا للكهف .

واكتشفت الطفلة انه ليس بالكهف الكبير ، ولا يحتوى على شيء من مستلزمات الحياة ورائحته كريهة ، ومع ذلك فقد كان فى نظر الطفلة أجمل قصور الأرض بعد ما لقيته من تشريد وعذاب !

وشد ما كانت تحب أن تسأل همى شاه عن حياتها وسبب اعتزالها الناس فى ذلك الكهف البعيد عن العمران ، بيد أنها فشلت فى افهام العجوز ما تريد ، وكان واضحا أنها تقيم فى ذلك المكان منذ أعوام طوال ، وأن بعض الزائرين يترددون عليها من آن لآن ، ولاحظت أن العجوز كانت تمضغ نوعا من الطباق بين شدقيها ، وهى عاكفة على طحن تلك الحبوب الجافة بين حجرين لتصنع منها دقيقا ، ولم تجد جانى ازاء ذلك سوى التحلى بالصبر الجميل فى انتظار وصول أحد الزائرين فترافقه حيث تصل سالمة لأبيها .

وسرعان ما ولى النهار وبدأت الشمس تنحدر نحو الغروب ثم تقضى جانى ليلة أخرى فى ظلمة وادى التيه الحالكة وسكونه الرهيب ، ولكنها فى هذه المرة لن تشعر بأى وحشة أو خوف .

***

وآخرون أيضا شاهدوا الشمس تغيب ، منهم أولئك الأبطال الذين انطلقوا للبحث عن جانى . كانت فى قلوبهم حسرة غضب فقد نهكت قوى مجموعاتهم وهم يشقون طريقهم فى عناء وارهاق وراء وهم كاذب لا وجود له الا فى الخيال !

وعند ممر حنا .. كان ماتيوكوبر يرقب غروب الشمس بقلب مكلوم ، وجيب سكوت فى قلق ، أما الشريف هـانك ثورو ففى حيرة واضطراب وحنق بعـد أن قدم له رستيبو تقريرا بخسائر اليوم .

شخص واحد من بين مئات الناس فى تلك البقاع النائية ، كان سعيدا بغروب الشمس وهبوط الظـلام ! ذلك هو كالفين لاورى الذى عرفناه باسم الأسـتاذ ، كانت كل ذرة فى جسمه ترقص طربا وتتغنى بأناشيد النصر !

ومن فوق قمة الصخرة السوداء ، جلس على صهوة جواده يتأمل الشفق الأحمر وتحت قدميه وادى فارو يمتد حتى الغابات المتشابكة الواسعة حيث لن تستطيع الطريدة أن تمضى بعيدا . ولن يهدأ له بال أو يستقر له حال حتى يتخلص من شاهدة الاثبات التى قد تقوده الى الـكرسى الـكهربى ..

وأمامه الليـل الطويل ليبحث عنهـا دون أن يخشى حسيبا أو رقيبا ..



الجمعة ليلا

كان رستيبو نائما داخل سيارة الاسعاف التى تقف مستعدة للطوارىء ، على حين جلس السائقون يتسلون بلعب الورق فوق العشب . أما الشريف ثورو فكان مستلقيا على المقعد الخلفى داخل سيارته الفارهة يحاول النوم عبثا ، ويسمع بعض الموسيقى الخفيفة تنبعث من مذياعه الصغير . كان قد اتصل منذ فترة طويلة بقادتى الفرق الحمراء والزرقاء التى كانت منتشرة على بعد سبعة أميال من ممر حنا ، وأمرهم بقضاء الليل حيث هم لمعاودة البحث مع أول خيوط الفجر .

ولم يكن جميع من وجدوا فى ممر حنا فى تلك الساعة نائمين أو مسترخين ، فقد ظلت استر كوبر تذرع غرفتها الصغيرة ذهابا وايابا وكأنها نمرة سجينة فى قفص ، وبين كل لحظة وأخرى ترهف آذانها لعلها تسمع صوت خطوات قادمة تخطرها بخبر جديد .

وكان جورج مدهيسان يقف مستندا على الجدار داخل المشرب ممسكا بمسماع التليفون ، يملى قصته عن صاحب استراحة آل ، مثال الجشع والأنانية والاستغلال الدنىء ، فى صوت هامس حتى لا يسمعه أحد ..

وفى المطبخ جلس آل هوفمان يحصى أرباح اليوم وهو يكاد يطير من الفرحة ، وفى نفسه أمنيات طيبة لما سوف يكسبه فى الغد .

كل ذلك .. وفيل لافلن يمضى بمفرده فى هضبة الشيطان بعد أن عثر على بعض الآثار . بيد أنها لم تكن متخلفة عن جانى

أو أى انسان آخر ، بل كانت آثار أقدام بها مخالب وحش طالما تمنى لافلن قتله ، وواضحة بجلاء على ضفة غدير لنجر ! حقا لقد كان يوما عصيبا شاقا بالنسبة له ، وكان حزينا آسفا لأنه لم يوفق فى العثور على الطفلة الضالة ، بيد أن تلك الآثار الحديثة بعثت فى نفسه الكثير من الارتياح .

***

استلقى جيرى مكريدى على سريره المعدنى فى الغرفة المظلمة رقم ٣ ، وكانت أنوار المعتقل قد أطفئت منذ نصف ساعة ، ومضى كل سجين الى فراشه استعدادا للنعاس .

ومن التجاوز أن نطلق على من بالمعتقل كلمة ، مسجونين .. فلم يكن المعتقل سجنا بالمعنى المعروف ، ومعتقل المذنبين يضم بين جدرانه عددا من سكان المراعى ممن يحترفون تربية الماشية ولهم مزارع واسعة . أو على الأقل من رعاة البقر الأشداء ، اما تحت التحقيق أو ممن ارتكبوا حوادث تافهة فليس للنوافذ قضبان حديدية أو شباك فولاذية كما نعهده فى السجون . كذلك لم يكن قائده أو أحد حراسه يحمل أى سلاح .

ومكريدى فى الحلقة الثالثة من عمره صغير الجسم ، ويعتقد أنه ذكى جدا وله مواهب دفينة ، وكان يقضى الشهرين الأخيرين من عقوبة طويلة لارتكابه جناية تزوير بعد أن سلك سلوكا مستقيما فى الليمان .

وقرر فى نفسه أن ينتظر حتى ينام الجميع ، ثم يتسلل من فراشه وينتعل حذاءه ويخرج من الباب الى الحرية التى ينشدها ولو قابله أى انسان فسوف يزعم له أنه كان فى طريقه «لدورات المياه» فالأمر فى غاية السهولة وقد جربه عدة مرات خلال الأسبوع .

وكان كل شىء هادئا ماعدا شخير بعض النائمين وأزيز الأسلاك المعدنية بسبب تقلب الأجسام عليها .. لقد أزف الوقت الآن .. وجلس مكريدى فى فراشه يتحسس بقدميه باحثا عن حذائه فى الظلام . وداعا أيها الحمقى . سوف أذكركم فى أحلامى .

ولا تتصور كم كان انزعاجه عظيما حين فوجىء باضاءة الأنوار في كل مكان . ترى ماذا حدث ؟ هل اكتشفوا خطتـه ؟ كيف وما أن فتح الباب حتى أسرع يدس نفسـه تحت الغطاء متظاهرا بالنوم ! وارتفع صوت قائد المعتقل يقول :

ـ حسنا يا رجال ! انهضوا جميعـا ، وغادروا الفراش .. هيا الى الصفوف !

وعجت الغرفة بالحياة ، فاختلطت التأوهات وألفاظ السباب بأسـئلة المعتقلين ودهشتهم وهم يفركون عيونهم ويحملقون في الضوء الساطع ، على حين أمسك مكريدى أنفاسه في انتظار قدوم القائد والامساك بتلابيبه ، ولـكن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل لمحه من طرف عينه يقف وسط الغرفة ويقول :

ـ معذرة اذا أقلقتكم وأطرت النوم من عيونكم ، ولكن أمامنا عمل هام سنمضى اليه فورا .

وهتف أحدهم محتجا :

ـ أما كفاكم ما قمنا به من عمل طوال اليوم ؟ لماذا لا تدعوننا لنستريح ؟

وأجابه القائد :

ـ هذا ظرف شاذ ، وعمل كبير هام .

وتنفس جيرى الصعداء ، فالأمر لا يختص به على أى حال! واستطرد ضابط المعتقل يقول :

ـ أيها الرجال ، لقد تلقيت مكالمة الآن من الشريف ، وهو في حاجة شديدة لمساعدتكم .

وأطلق بعضهم صفير الاستنكار ، كما هتف الآخرون بعبارات السخرية والشتائم موجهة للشريف وقد تحملها الضابط صابرا وهو يقول :

ـ استمعوا لى لحظة قبل أن تطلقوا العنان لألسنتكم . هناك فتاة .. طفلة صغيرة ضلت في مكان ما بين جبال انكانتو ، ولقد

مضى عليهـــا هنـاك اكثر من اربع وعشرين ساعة ، وهم فى حاجة لمزيد من الرجال للمعاونة فى البحث عنها ، ومن المصادفة أننـــا قريبون ومنظمون وأيضا فرصــــة للاشتراك فى هـــذا العمل الانسانى .

وقال أحدهم : ان للشريف جنودا وفرسانا . أليس كذلك ؟

ــ عددهم لا يكفى هذه المهمة . وفي وسعى أن آمركم بهذا ، ولكننى أكره ذلك .. وانى لأعلم أن من بينكم من له صغار فى عمرها وقد رأيتهم هنا فى عيد الأسرة ــ ولســـت أطلب الا أن تفكروا جميعا فيهم ، فهل يحب أحدكم أن تضـــل ابنته أو ابنه ويتعرض للهلاك وسط الجبال ؟ وصاح أحدهم من خلف الصفوف :

ــ ياللسماء ! ماذا تنتظرون ؟ هل نضـيع الوقت فى الجدال والمسكينة فى أسوأ حال ؟

وقال الضابط :

ــ سيارات النقل فى الخارج مستعدة لنقل من يريد .

ثم استدار على عقبيه منصرفا .

وبدأ مكريدى يربط حذاءه وقد استغرق فى تفكير عميق ، على حين انهمك من حوله فى ارتداء ثيابهم وهم يتحدثون ، كان غاضبا على تلك الظروف المفاجئة والتى عاقته عن الهرب فى اللحظة الحاسمة بيد أنه مالبث أن شـــكر الحظ والعناية التى هيأت له المناسبة السعيدة ، فما أسهل أن يختفى بغتة عن عيون الحراس فى البحث والتفتيش ، ولن يشعروا به مطلقا الا بعد ساعات طوال لايعلم مداها الا الله !

وقال له رفيق له :

ــ لم أرك فى مثل هذه الغبطة والسعادة وأنت منطلق للعمل أمريض أنت أم ماذا ؟

وأجابه مكريدى فى حدة :

ــ ما هذا الذى تقوله ؟ عمل ؟ أتسمى هذه المهمة الانسانيــة عملا ؟ ألا تجرى فى دمائك قطرة واحدة من العطف والرحمة ؟

***

خرجت آليس للشرفة وكان جيب لايزال غارقا فى النعاس وما كادت تستدير عائدة حتى لمحت رجلا يجلس أسفل الشجرة فى الجهة الأخرى من الطريق ، ومستندا بظهره الى جذعها ووقفت تتأمله لحظة حتى تبينت أنه ماتيو كوبر ، ولما أدركت أنه لا يتحرك فى جلسته هبطت درجات الشرفة وعبرت الطريق حتى اقتربت منه وسألته :

ـ أأنت بخير ياسيد كوبر ؟

وأجابها فى صوت متزن :

ـ أجل أنا بخير يا آنسة . أأنت فى حاجة لى ؟

ـ أوه . كلا ! فى الحقيقة عندما شاهدتك على بعد وأنت جالس لا تتحرك شعرت ببعض القلق عليك .

ـ شكرا .

وأفسح كوبر لها مكانا بجواره وقال فى الحاح :

ـ اجلسى !

وأطاعته . وعندئذ تبينت مدى ما يشعر به من اجهاد ونصب .. واستطرد يقول فى حزن :

ـ كم كنت أتمنى أن أنطلق للبحث عن جانى ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه !

ـ أنا أفهم شعورك جيدا يا سيد كوبر ..

وأقبل رستيبو من داخل المشرب ينادى كوبر ، فما كاد هذا يسمعه حتى هب واقفا فى فزع وانطلق نحوه قائلا :

ـ انى هنا .. ماذا حدث ؟

ـ رفقا بأعصابك يارجل ! ما أردت الا أن أعرفك بوصول كلاب الصيد ، ولسوف نجعل نقطة البداية فى بحثنا من مخيمك . ولابد من أن نستأذنك قبل ذلك .

ـ طبعا . لك أن تذهب الى مخيمى وقتما شئت . هل تحب أن أرافقكم ؟

ـ كلما قل عددنا كان ذلك أفضل • فنحن الآن أربعه رجال بعد أن ينضم جيب الينا • ترى أين هو ؟

وأجابته آليس ؟

ـ انه نائم فى الشرفة •

وعندئذ مضى رسستيبو ليوقظه ، على حين عاد كوبر الى مكانه الأول وهو يسير بخطوات متخاذلة • وقالت له آليس :

ـ ألا تحاول قليلا من النوم ؟

وتنهد يجيبها :

ـ لا أشعر برغبة فيه • وسأنتظر هنا ظهور النتيجة •

وفى أثناء مرورها بين الموائد ، شاهدت الصحفيين جورج وبيل يلعبان النرد وأشار لها الأول أن تجلس معهما قليلا ولكنها تركتهما وانصرفت الى غرفتها حيث خلعت ثياب اليوم وارتدت منامتها • ثم دست نفسها فى الفراش !

❊ ❊ ❊

كان مخيم كوبر كما تركه لم يمسه انسان ، وبدا كئيبا ينطلق باللوعة والحزن ، ومضى الرجال يبحثون عن أى شيء يحمل رائحة جانى ، وأمسك جيب باحدى لعبها متسائلا :

ـ ترى هل تنفع ؟

وأجابه ويجاند قائلا :

ـ لا • أريد قطعة من ثيابها •

وويجاند هو الضابط المنوط به قسم الكلاب ، يحبها ويرعاها كبعض أبنائه ، وقد جاء ومعه أربعة من كلاب الشرطة •

وعثروا على سلة بها بعض ثيابها المستعملة ، واختاروا قميصا خفيفا • قربها ويجاند من أنوف كلابه بعض الوقت وعندئذ اقترح جيب أن يبدءوا بمنطقة المناجم حتى اذا كانت لهـا رائحة هناك ، تأكدوا من سلامة حاسة الحيوان ، وعبس ويجاند وقال فى غضب :

- كلابى ليست فى حاجة لأى توجيه أيها السيد • فهى تعرف جيدا أين تمضى • ولكن خبرونى ما هو المدى الذى تستـــطيعون المشى اليه ؟

ونظروا بعضهم الى بعض • وقال رستيبو :

- فى وسعنا أن نحضر جيادنا اذا اقتضى الأمر •

ووافقه جيب على ذلك غير أن ثورو قال :

- لننظر فى أى سبيل ستمضى كلابك ياويجاند ...

وتركوا المخيم مارين ببور تالكانيون الى المروج ، وانحرفوا الى مشارف منطقة المناجم ، ولاحظ جيب أن الكلاب تسير دون حماس ، فهى تمضى فى كسل وتبعا لتوجيه قائدها •• ولكنه لم يعلق على ذلك وفى اعتقـــاده أن رائحة جانى ربما تكون قد اختلطت برائحة الجياد والفرسان التى مرت بذلك المكان •

وما لبثت أن توقفت تماما عن المسير ، وقرب ويجاند القميص منها حتى تشمه مرة أخرى ، ولكنها برغم ذلك كانت تأبى المضى •

وهتف ثورو خائفا :

- ما الذى أصاب كلابك ؟

- انها فى أحسن حال • كل ما فى الأمر أنها لا تجد أى أثر لرائحة الطفلة هنا •

وقال له رستيبو :

- حاول مع الكلاب ثانية •• فنحن نعلم أن جانى سارت من هنا •

وبرغم محاولاته المتكررة •• فلم يحرز معها أى تقدم •• وأخرج ثورو نفسا شديدا من أنفه وقال فى حزن :

- ليتنى نعمت بالنوم السعيد ، ولم أجهد نفسى وأتكبد مشقة الحضور ••

وقال جيب فى محاولة لتخفيف حدة المناقشة :

- انتظروا لحظة ، ولنفكر قليـــلا معا • ماذا لو كانت الكلاب

على صواب ولم تمض جانى من هذا الطريق بالفعل ؟
وأجابه ثورو فى غضب :
ـ هذا لأنك بطيء التفكير . فكل الأدلة تؤكد لنا عكس ما تقول ألم يعثروا على منظارها هنا ؟ بم تفسر ذلك اذا لم يكن قد سقط منها « بالفعل » ؟ هل طار فى السماء ثم هبط فى هذا المكان عامدا متعمدا ؟
وغمغم جيب فى حيرة وقال :
ـ لست أدرى . كان لدى احساس غريب على أن جانى لم تسلك هذا الطريق قط ..
وأطلق ثورو ضحكة ساخرة وقال :
ـ مرحى باحساسك الغريب !
وعاد جيب يقول فى هدوء :
ـ ماذا لو تركنا الكلاب تختار طريقها وحدها دون أى توجيه منا ؟
وتبادل ثورو ورستيبو النظرات ، واستطرد جيب مؤكدا رأيه :
ـ ولن نخسر شيئا على أى حال ، ما دمنا جئنا وطار النوم من عيوننا . ما رأيك يا ويجاند ؟
وهز هذا كتفيه وقال :
ـ أقول لكم : ان كلابى لا تخطىء البتة ..
وقال ثورو مستسلما :
ـ حسنا . سأنكر عقلى وأجعل الكلاب والأحاسيس الغريبة هى التى تحركنا ! هيا بنا !
وعاد ويجاند يقرب القميص من أنوف الكلاب ، ثم ادار رؤوسها للخلف فى اتجاه المروج ، وعندئذ انقلب حالها تماما فاذا هى تتحرق شوقا وتشتعل حماسا وتثب فى الهواء وهى تجذب مقاودها . مما اضطر ازاءه رستيبو وويجاند للهرولة حتى يسايراها ..
وقال ثورو لجيب وهو يلهث خلفهما :
ـ أراهن بكل ما أملك أنها عائدة بنا حيث قدمنا ..

ولم يجبه جيب ، فقد كان يفكر فيما قد يتمخض آخر الأمر ..
لم تمض الكلاب فى خط مستقيم ، بل راحت تسير فى خط دائرى حتى بلغت شاطىء (لنجر) ومن هناك اتخذت سبيلها فى خطوات ثابتة .. وانطلقت مباشرة فى اتجاه هضبة الشيطان .. وراح ويجاند ورستيبو يشدان الكلاب حتى تتوقف وقد استبدت بهما الحيرة . وانتظرا برهة حتى لحق بهما الشريف وجيب . فقال ويجاند :

ـ لقد مضت الطفلة هناك .. بلا جدال !

وهتف ثورو :

ـ مستحيل ! لابد أنها قد اختلطت عليها الرائحة ! كيف يكون ذلك ممكنا . وذلك المنظار ؟

ـ انى أعرف ما أقول .. وأراهن من يشاء على أن كلابى لا تخطىء .

ـ ليست المسألة حكاية رهان . انما هو وقتنا الثمين الذى تتوقف عليه حياة الطفلة !

وكان جيب يسمع كل ذلك ، ولكنه لم يشترك فيها ، وأخذ يبحث بمنظاره اليدوى فى الأرض هنا وهناك ، وهتف بغتة :

ـ انظروا ..

وكان قد سلط دائرة الضوء على بعض الزهور التى ذبلت قليلا وكانت ملقاة على الأرض وغمغم يقول :

ـ أما قال لنا كوبر انها مضت لتقطف بعض الزهور ؟

وران عليهم الصمت بضع لحظات . وأخيرا سعل ثورو قائلا :

ـ حسنا يا ويجاند . والآن هيا لنرى الى أين ستمضون بنا .

واذ عادت للضابط كرامته المثلومة ، انبسطت أساريره وترك كلابه تمضى حيثما تريد .. وفى اتجاه هضبة الشيطان ..

***

كانت آليس قد بلغت من الاجهاد والنصب فوق طاقتها . وفى أشد الحاجة للراحة والنوم العميق ومع ذلك فلم تستطع اقناع نفسها بذلك ، بل كلما ألحفت عليها .. هرب النوم من عينها وأدركت فجأة انها ليست وحدها على تلك الحال ، بل أيضا جارتها التى تقيم فى الغرفة الملاصقة لها . فكانت تسمع من خلال جدرانها الخشبية صوت خطوات السيدة استر كوبر وهى تذرع الغرفة الضيقة ذهابا وايابا ، ثم لا تكاد تتعب من المشى حتى تسمع أزيز أسلاك فراشها وهى « تطرقع » مما يدل على تقلبها المستمر على جنبيها !

وغادرت آليس فراشها وذهبت الى المطبخ ، وبدأت تسخن بعض اللبن على البوتاجاز ،ثم مضت الى غرفة استر كوبر . ووقفت لحظات تنصت فلما أيقنت من صوت خطواتها أنها ما زالت مستيقظة طرقت الباب فى لطف . وعندئذ توقفت استر عن المشى وهتفت فى قلق :

ـ من هذا ؟

ولما أخبرتها آليس ، أسرعت تفتح لها الباب على مصراعيه .. وكان وجهها شاحبا وعليه أمارات اللهفة والانزعاج .

وبادرتها آليس تطمئنها :

ـ لقد جئت بكوب من اللبن الدافىء .. بعد أن سمعتك تذرعين غرفتك .

ـ أوه .. شكرا لك ! أمن أخبار جديدة ؟

ـ لا جديد يا مسز كوبر . ينبغى أن تحاولى النوم حقا .

ـ حاولت ولكن عبثا (وهزت كتفيها) . ومعذرة اذا كنت قد سببت لك قلقا ..

ـ أنت لم تسببى لى شيئا يا مسز كوبر . فأنا نفسى لا أستطيع النوم .. واذا أردت شيئا منى ..

ـ لا .. وأشكرك كثيرا وصمتت لحظة ثم قالت مترددة اذا بقيت معى قليلا نتناول بعض الحديث ..

وجلست آليس على حرف الفراش .. بجوارها تقول :

ـ أرجو أن تحبى اللبن الدافىء .. فلم أر ماذا أقدم لك !
ـ بل انه لكرم عظيم منك . ورشفت منه وقالت :
ـ انه جميل جدا .. شكرا جزيلا .
وغمغمت آليس تقول لها :
ـ بالهناء يا سيدتى ..

***

قال الشريف ثورو يسأل جيب :
ـ ألديك أدنى فكرة عن المكان الذى ستقودنا اليه تلك الكلاب؟
وكانت معاملته نحو جيب قد بدأت تتحسن ، بعد أن تبين صدق حدس رجل الحدود وبعد نظره وأشار جيب بيده جهة الشمال قائلا :
ـ يبدو أننا فى طريقنا صاعدين الى قناة كوشيلا . لقد مررت بنفسى فى تلك المنطقة ولكنى لا أتمتع بحواس الكلاب طبعا .
وعلق ويجاند على ذلك قائلا :
ـ لقد أفسدت الحضارة حواسنا مع مرور الأجيال والعصور، وفى ظنى أن الانسان الأول كان أفضل منا فى ذلك .
وراح ثورو يلهث محاولا مسايرة خطوات رفاقه الواسعة ويقول ساخطا :
ـ ترى ما الذى دفع بتلك الصغيرة الى تلك الأماكن اللعينة الموحشة ؟
ووافقه جيب بقوله :
ـ وذلك مايحيرنى أنا أيضا ، وخاصة أن أباها حذرها مرارا ..
وقال رستيبو :
ـ لأنك لم تتزوج أو تنجب أطفالا . فلم تجرب أفعالهم !
وكانوا قد اخترقوا دغلا كثيفا من أعواد الغاب ، ثم خرجوا منه الى مكان فى ضفة القناة .. وعند ذلك توقفت الكلاب عن الحركة الأمر الذى اضطر معه ويجاند أن يقول :
ـ يبدو أنها عجزت عن تتبع الرائحة ..

وأخذ جيب يسلط مصباحه على شاطىء القناة باحثا عن أى أثر للطفلة وهو يقول :

ـ أكبر الظن أنها عبرت القناة من هنا يا رستيبو .. فأرجو أن تمضى فى اتجاه المجرى باحثا عن أى أثر لها وسأمضى أنا فى الاتجاه المضاد لنفس الغرض .

ومع ذلك .. فقد ذهبت جهودهم أدراج الرياح . ثم وقفوا يتشاورون ! وغمغم ثورو ساخطا :

ـ يا للسماء ! هل تبخرت فى الهواء ؟

وهتف جيب بعد تفكير قصير :

ـ انتظروا ! انها الحيلة الهندية القديمة ! لابد أن جانى قد فطنت لها .. ان الهنود يلجئون اليها لاخفاء آثارهم عن أعدائهم بالخوض فى منتصف المجرى . والمعروف أن الكلاب لا تستطيع شم الأثر فى الماء ..

ـ ولكن هذا مستحيل ! لماذا تلجأ الطفلة الى ذلك ولم يكن وراءها أحد أو بينها وبين مخلوق عداء ؟

وقال لهم جيب :

ـ ذلك هو التعليل الوحيد أيها السادة . فهيا نتجوب كلتا الضفتين فى اتجاه المجرى لأننا نعلم يقينا أنها لم تمض فى الاتجاه المضاد . لأنها لو فعلت لوصلت منذ وقت طويل الى مخيم أبيها .

ووافقوه على اقتراحه . وبعد مسيرة مائتى ياردة بدأت الكلاب تنبح مسرورة وراحت تجرى والرجال من خلفها . وقال ثورو فى دهشة :

ـ ترى ما معنى ذلك ؟

واجابه ويجاند :

ـ لأنها خرجت من الماء فى هذا المكان .

وصوب جيب مصباحه حواليه .. ثم سلطه على شجرة بلوط ضخمة كانت بها آثار خدوش وبعض شعيرات صفراء عالقة بالجذع السميك وهو يقول :

ـ أما هذه فآثار « بن العجوز » ولا شك فى ذلك . شعيراته الصفراء على نفس ارتفاع جسمه الكبير .

وقال رستيبو يسأل ويجاند :

ـ هل يوجد احتمال فى أن كلابك ربما التقطت رائحة الأسد القوية النفاذة ؟ .

وعندئذ قال الشريف :

ـ اذن فالأمر واضح كالشمس !

وسأله رستيبو :

ـ أى أمر تعنيه ؟

ـ عجبا .. هل عجزت عن الفهم يارجل ؟ الأسد هنا فى نفس الطريق الذى سلكته الطفلة فلابد قد التهمها .. مما جعل الكلاب تفقد رائحة الطفلة .. وتتعقب رائحة الوحش !

والتفت رستيبو الى جيب يسأله :

ـ ألم تؤكد لى أن بن العجوز لن يؤذى انسانا ؟

وأومأ جيب برأسه وأجاب :

ـ بلى ومازلت أقول ذلك . ولا أعتقد البتة مايقوله الشريف. وربما تعقبها نعم ولكن من باب الفضول فحسب ، أما أن يثب عليها ليفترسها .. فكلا يا سيدى .. انى لأعرف طباع (بن) ..وليس هو من أكلة الانسان ! .

وسأله ثورو ساخرا :

ـ ومن أين لك تلك الثقة ؟ لو أن وحشا قرصه الجوع ، ألا يقدم على أكل أى شىء يصادفه ؟

وصمت جيب مفكرا .. وهو فى حيرة ! انه لواثق من معلوماته ولكن القرائن هنا فى غير صفة . فقال مترددا :

ـ حسنا . هناك سبيل واحد لمعرفة الحقيقة . ذلك هو العثور على (بن) .

وقال ويجاند معترضا .

ـ كلابنا غير مدربة على مطاردة الوحوش . وايضا نحن غير مسلحين بالبنادق ..

وغمغم جيب قائلا :

ـ صدقت . ليس أمامنا سوى أن نعود أدراجنا اذن ، وفى وسعنا ان ـ نجعل الفرسان يتحركون فى هذا الاتجاه .. فيصلون عند الشروق ، وعندئذ نترك لهم الكلاب تجرى أمامهم . فاما هذا أو ذاك ..

وتنهد فى يأس .. واستطرد يقول مقطب الجبين :

ـ يا للسماء ! ست وثلاثون ساعة .. ثم نصل لمعرفة الطريق الذى سلكته الصغيرة ؟ أدعو الله أن تستطيع انتظارنا حتى نهتدى اليها ..

***

وكانت أصوات نباح الكلاب قد تناهت الى أذنى (فيل لافلن) وهو على قيد ميلين منها . وخطر بباله أن يمضى فينضم الى من معها من الرجال ، بيد أن النباح ما لبث أن توقف ، وساد السكون العميق فقرر أن يبقى حيث هو ..

كان قد انطلق خلف (بن العجوز) ، ولقى فى ذلك عناء شديدا فالآثار تظهر مرة ـ وتختفى مرات بسبب جفاف التربة أحيانا ، والظلمة أحيانا أخرى . ومع ذلك فقد حالفه التوفيق واستطاع أن يتعقب غريمه ويقطع شوطا طويلا وبنجاح كبير . ولم تكن بالمرة الأولى التى يمضى فيها خلف الأسد فكلما اكتشف فى الصباح ما منى به من خسارة فادحة فى ماشيته وأغنامه ، اجتاحته ثورة من الغضب ، ولكن محاولاته تذهب عبثا لمضى فترة طويلة على هروب العدو فتطمس الرياح آثاره أما فى هذه المرة فالآثار حديثة وواضحة

وكان جواده هو الآخر فى حالة لا يحسد عليها ! يجفل من الظلام وترهبه الأشباح على غير « عادة » مما قوى الثقة فى نفس الرجل من أن (بن) لابد قريب وجواده يشم رائحته فى الهواء بكل تأكيد . ومسح رقبة الحصان وقال يطمئنه .

ـ لا ترع يا صديقى . اننا وراءه وسننتصر عليه هذه المرة !
وكان يمسك بندقيته على وضع الاستعداد .

واستطاع أخيرا أن يهتدى للكهف الذى بات فيه الوحش فى الليلة السابقة ، وسلط دائرة مصباحه اليدوى باحثا منقبا متوقعا فى كل لحظة أن يسقط الضوء على عينى بن الخضراوتين . ولكن الكهف كان خاليا الا من رائحته القوية .

واستمد من ذلك الكهف ايمانا بأنه يمضى خلفه دون خطأ . وراح يتساءل فى نفسه أين ذهب الماكر ؟ وفجأة ارتجت الأرض فجأة بصوت الزئير المرعب يتردد صداه بين الأرجاء من مسافة قريبة .. بل فى الحق أقرب مما كان يتوقعه فيل حتى لقد جعلته المفاجأة يثب من مكانه مذعورا .. وجعلت جواده يجبن ويجذب عنانه بشدة قاصدا الفرار !

وأخذ فيل يهدىء من روع جواده حتى هدأ . فقد كان الزئير لا يبعد عن مكانه أكثر من مائة خطوة ، وراح يقترب ببطء . ثم ترجل وربط جواده فى جذع قريب . وفى تلك اللحظة سمع صوت تهشم عظام على مسافة قريبة منه ، فأضاء مصباحه وسلطه هناك فاكتشف جثة حصان رتيشى الأحمر مضرجا بدمائه .. أما قاتله فلم يجد له أثر .

وكانت ظلال شجرة البلوط بفروعها الباسقة تحجب انعكاس نجوم السماء وتمنع الرؤية تماما ، وفى وسط الظلمة لمح فيل جسما ضخما أكثر سوادا من الأرض ، فسلط عليه مصباحه .. واذا به يرى بن العجوز رابضا متحفزا .. يحملق فى غريمه غاضبا !.

ومضت لحظات وكل منهما يتأمل الآخر . الصائد والطريد ! وزمجر محذرا ذلك الانسان الذى قطع عليه خلوته ، وجمع أطرافه من تحته متأهبا للانقضاض الخاطف ، وعندئذ رفع فيل بندقيته ثم أطلق النار ، وأصابته الرصاصة فى منتصف المسافة بينه وبين فيل ، فسقط على الأرض وانهال الرصاص ممزقا قلبه وصدره ، مخترقا رأسه ، فسعل «بن العجوز» مرة ثم سكن قتيلا .

ووقف فيل يتأمل غريمه وفى نفسه نشوة النصر ، ومع ذلك فقد شعر بالحزن والأسف ! كانت جثة الأسد العجوز لها رهبة وكأنه مازال ملك الوحوش والغابة المهيب ، حتى لو قتل ووريت جثته التراب !

ومضى فيل فأحضر جواده ، ثم انحنى على جثة الأسد واستطاع بعد جهد كبير أن يرفعها من الأرض ويضعها على ظهر الجواد خلف السرج ..

***

كان الرجال الأربعة قد وصلوا استراحة آل هوفمان فى اللحظة التى تردد فيها زئير «بن العجوز» بين الأرجاء عاليا رهيبا ، ولكنهم لم يسمعوا صوت الطلقات التى مزقت جسمه ، ولقد ضاعف علمهم بعودة الأسد ، من نشاطهم ، فعلى صيده يتوقف القرار الحاسم على موت جانى أو حياتها .

ومضى ويجاند بكلابه الى بيوتها فى انتظار طلوع الفجر ، على حين انهمك الثلاثة الباقون فى اتخاذ الاجراءات اللازمة لعودة فرق البحث من منطقة المناجم وغابات مورى حيث أضاعوا أربعا وعشرين ساعة هباء ودون جدوى ، لينطلقوا مرة أخرى بفرسانهم وعتادهم الى هضبة الشيطان .

وعكف الشريف مع رستيبو وجيب على «الخريطة» الكبيرة يفحصونها بدقة .. وغمغم ثورو فى يأس :

ـ ليتنى لم اسمح للطائرة بالانصراف .. فها نحن أولا فى أشد الاحتياج لها !

ـ لكنها لا تستطيع عمل شىء فى الظلام ..

ـ ربما ألقت بعض المشاعل لارشاد الطفلة عن وجودنا ..

وهتف جيب مذعورا :

ـ مشاعل ! وفى الغابة ؟ سنفاجأ عندئذ بحريق أضخم من ذلك الذى أحرق روما !

وان ذلك يذكرنى بأمر هام .. فحين يعطى الفرسان الأوامر بالتحرك ، أرجو أن تحذرهم اشعال أى نوع من النيران .

وغمغم ثورو غاضبا :

ـ بل ان لدى اقتراحا أهم .. هو أن تزيلوا تلك الغـابات وتنظفوا المنطقـة من الجبال .. فنستريح ويستريح الناس .. ولن يضل مخلوق بعد ذلك !

وتنهد فى حسرة وأردف :

ـ يا اله السموات ! كان فى ظنى أن ننتهى من كل ذلك بين يوم وليـلة .. وهانحن أولاء قد دخلنا فى السبت .. ومازلنـا نتخبط دون نتيجة .

ولم يفطن جيب الى معنى تلك الملاحظة ، بيـد أنه وقبل أن يستوضحه كانت قد حدثت فى الخارج ضجة تبين أن سببها أربع من سيارات النقل التى وصلت تحمل طائفـة المعتقلين ، وأسرع ثورو ليستقبلهم تاركا مهمة دراسة «الخريطة» لجيب ورستيبو .

وقال رستيبو لرفيقه وقـد بدا عليه الارتياح بعد انصراف الشريف :

ـ هيا للعمل اذن . ما هى أفضـل الوسائل لتنفيذ خطتنا يا جيب ؟

ـ على الفرسان أن يختصروا الطريق مباشرة الى التل الصامت ليوفروا الوقت ، ويصلوا الى قلب هضبة الشيطان ، وهنـاك برج لمراقبـة الحرائق يسترشدون به .. آه .. ليتنى معهـم فأرشدهم بنفسى ..

ـ ولـكنك هنا على أى حال . ماذا أقول لهم ؟

ـ حذرهم الصخور الملساء حتى لا تنزلق فوقهـا الجياد ، ولا تنس «لفت» نظرهم الى خطورة اشعال أى نوع من النيران فى تلك البقاع ، فالهشيم جاف .. كذلك بصرهم بما علمنـاه عن «بن العجوز» وقل لهم : ان ثمة مكافأة قيمة لمن يحضر لنا رأسه ، فيشتعلون حماسا ..

ومضى رستيبو الى سيارة اللاسلكي ليلقى بالتعليمات ، على حين راح جيب ليعرف ما يقوله الشريف لضابط المعتقل ، وكان الأخير يؤكد أن رجاله من الأخيـــار الطيبين وقد تطوعوا لذلك الواجب الانســــانى ، ولا خوف عليهــم ، ومضى الشريف يقول للضابط فى صوت خافت :

ـ ولـكنهم مسجونون ! وينبغى تشديد الحراسة عليهم مهما كان الأمر .

ـ اننا نعتمـد على اننا نعرفهم معرفة جيدة ، ولن نستطيع بأى حال فرض الحراسة التى تقترحها وخاصة اذا كانوا سيفرقون جماعات ، كل جمـاعة من رجلين ، وليس معنا من الحراس الا خمسـة فحسب ، واذا كان ذلك لايوافقك فالسيارات لاتزال موجودة وسوف أحشدهم فيها ، ونعود أدراجنا الى حيث جئنا .

وفكر ثورو برهة ثم قال :

ـ ماداموا قــد وصلوا ، فعلينا الافادة منهم بكل الطرق وبرغم كل ذلك فمازلت أشك فى كلمة الشرف التى تتكلم عنها .. لقوم معدومى الشرف !

وأجابه الضابط :

ـ حسنا ، ولـكنى جربتها مرارا وكانت نتيجتها تسعين فى المائة فما زالت الدنيا بخير يا سيدى .

واستدار ثورو منصرفا ، وبقى جيب مع الضابط ..

ولمـا كان رستيبو غير موجود ، فقــد قرر جيب أن يتحمل المسئولية فقال للضابط :

ـ أعتقد أن من الأفضل لو أخذت رجالك الى بورتال كانيون ومن هناك الى المروج ، لتستريحوا هنـاك وتنعموا ببعض النوم حتى طلوع النهــار . وسوف أرسل معـــكم واحدا من الجنود لارشادكم عن الطريق ، وفى الصباح تمضون الى هضبة الشيطان ولا أعتقد أن أحدا من المسجونين يحمل سلاحا ؟

وابتسم الضابط قائلا :

ــ قد نكون متفائلين .. ولـكنا لسنا بالحمقى .

ــ حسنا .. ومادمتم تسيرون بالقدم فلا حاجة بكم للتعرض لـ «بن العجوز» ، وأرجو أن «تلفت» نظرهم الى ملاحظـة آثاره فحسب ، فثمة احتمال ضعيف فى وجود علاقة بينه وبين الطفلة الغائبة .

ــ سـوف أخبرهم بذلك فى الصـباح ، فمن بينهم رجال عاشوا حياتهم فى المدينة ولو سمعوا بحكاية الأسد لفقدوا أعصابهم وتملـكهم الرعب !

***

ــ لن أخاطر بكلابى فأعرضها ليفتك بها ذلك الوحش المفترس سوف ننتظر طلوع النهـار حتى نرى ما أمامنا ، أما قبل ذلك فمحال !

وقال ثورو :

ــ لن تستطيع مخالفة أوامرى والا تعرضت لأشد الجزاء .

ــ حاول اذا أردت ! ولكن الكلاب لن تمضى بدونى .

ونظر الشريف الى رستيبو كأنما يطلب مناصرته ، ولكن هذا هز رأسه قائلا :

ــ فى اعتقادى أن الحق فى جانبه يا سيدى .

وكان النقاش يدور حول ضرورة تعقب بن العجوز وقتله . بعد أن أكد جيب ضرورة تكتيل كل القوى لاقتفاء الأثار من حيث انتهت على صفة كوشيلا . على أن تكون قوة البحث من الفرسان راكبين ومسلحين بالبنادق السريعة . وكان لابد من اشتراك كلاب الشرطة معهم ، ولكن هاهم أولا قد فوجئوا باعتراض ويجاند خوفا على كلابه من أن يؤذيها الأسد فى الظلام .

وكادت المناقشة تحتد ويفقد ثورو أعصابه لولا أن ظهر فيـل لافلن فى تلك اللحظة . وما كاد جيب يلمحـه حتى هتف بهم مناديا :

ـ تعالوا . لقد وصل فيل لافلن ، وجاء معه بالأسد العجوز!

وترجل فيل عند درجات الشرفة ، بين صيحات القـــوم وفرحتهم ، وبدا كأنه خجل من سيل التهانى الذى غمروه به ...

وكان يقول لهم فى هدوء :

ـ أجل .. لقد جئت لكم به بعد أن اقتفيت آثاره بين صخور هضبة الشيطان .

وكان ثورو يتأمل رأس بن العجوز ويقبها بيديه ويغمغم متعجبا :

ـ يا للشيطان . انه لأضخم مما ظننت !

وقال جيب لفيل :

ـ لقد كنا على وشك الانطلاق لصيده . وشكرا لك اذ وفرت علينا الجهد .

وكان ماتيو كوبر يحملق فى جثة (بن) فى ذعر ويأس . وغمغم ثورو فى صوت منخفض :

ـ علينا أن نرسله فورا الى معمل التحليل . ولســـوف يخطروننا فى الحال عما سيجدون بمجرد أن يقوموا بتشريح أمعائه .. ترى كم سننتظر حتى يصلنا الرد ؟

فقال جيب :

ـ لن تستغرق المســافة أكثر من خمس وثلاثين دقيقة . ثم يصلنا الرد تليفونيا ..

وزفر ثورو وهو يقول :

ـ خمس وثلاثون دقيقة ..! حسنا سوف ننتظر على أحر من الجمر !

***

توقف ضابط المعتقل برجاله ومن معه من المعتقلين عند مشارف هضبة الشيطان ليستريحوا حتى الصباح .. وبعد أن استقر كل منهم فى مكانه بدأت عملية التمام والمناداة على الأســماء .. وكان كل شىء على ما يرام حتى وصلوا فى القائمة الى حرف الميم .

ـ لويس ؟

ـ موجود .

ـ ماربرى ؟

ـ موجود .

ـ ماكريدى ؟

ولم يرد أحد على النداء .

ـ مكريدى ...؟

* * *

استلقت استر فوق فراشها .. وتركتها آليس تأمل قليلا من النوم لعله ينسيها قلقها ومخاوفها ، ولكن غيــوم الأفكار ما فتئت تهاجمها . كذلك كانت الضجة على أشدها فى الخـــارج ، وأخيرا لم تعد أعصابها تتحمل المزيد ، فتسللت من فراشها وارتدت ثيابها ثم مضت خارجة فى الظلام .

وراحت تتسكع على غير هدى خارج المبنى ، وليس فى خاطرها مكان محدود تذهب اليه . وكانت كلاب الشرطة تزمجر فى قلق حين مرت استر ببيوتها . كذلك لاحظت عددا من الرجال يقفــون بجوار سيارة اللاسلكى يتحدثون ،بيد أن احدا لم يلمحها .. وهى لم تحاول الاقتراب منهم .

ووقفت تتأمل جوادا مغمض العينين كأنما قد استغرق فى سبات عميق ، وكانت احدى مقدمتيه مرفوعة عن الأرض وفكرت فيما لو كانت تستطيع اختلاسه ، فتمتطيــه وتذهب للبحث عن صغيرتها الضالة . ثم سمعت من ينادى اسمها :

ـ استر ..!

وفزعت لذلك الصوت الذى فاجأها فقطع عليها وحدتهـــا وتفكيرها ..

ـ استر . تعالى من هنا .

وعندئذ لمحت شبح زوجهـا يجلس عبر الطريق تحت احدى الأشجار ، ووجدت قدميها تسيران نحوه بحركة لا ارادية وتقــول له :

ــ ماذا تفعل هنا يا مات ؟

ــ أجلس كما ترين ، وفى المكان متسع اذا شئت الجلوس .

وقبلت دعوته فجلست على مسافة قليلة منه . وسألته :

ــ ألم تستطع النوم ؟

ــ نعم .

ــ وعندئذ غمغمت :

ــ ولا أنا . ألم يحدث جديد ؟

ــ لقد نجحت كلاب الشرطة فى اقتفاء أثرها الى حد ما ثم عجزت عن التقدم بسبب الظلام .

ــ ولكن هذا مستحيل . هل أفهم من ذلك أن جانى قد ضاعت للأبد ؟

وأشاح كوبر بوجهه وأجابها :

ــ لا . لا تجزعى ! لسوف يستأنفون البحث حتى يعثروا عليها .

ــ ليتهم يفعلون يا مات .

وراح يبحث بيديه فى الظلام وسألها :

ــ هل تشعرين برغبة الى جرعة من الشراب ؟ عندى هنا زجاجة لا أدرى أين وضعتها ..

ــ لا ... ولكن اذا اعطيتنى سيجارة ..

وأعطاها علبته التى تكاد تكون خاوية ، ثم أشعلا سيجارتين . وتمتمت تشكره وتقول :

ــ طعمها جيد . وكنت فى حاجة الى التدخين ، بيد أنى أكره التدخين وحدى ..

ــ لم أكن أعرف ذلك .

وأومأت برأسها قائلة :

ــ أجل . لم أخبرك به . ولكنه الحق .

ـ يخيل لى أن الفرص لم تتح لأحدنا بأن يتحـدث طويلا مع الآخر ولو فى التافه من الأمور . وربما ...

(ثم صمت) وساد الصمت بينهما برهة حتى قالت استر :

ـ السكون هنا جميل ، والجـو رائع ! لو كنت أعلم بوجودك هنا لحضرت من فتـرة ، حتى أتخلص من تلك « الزنزانة » التى حبست فيها !

ـ معذرة ، فقد فاتنى أن أدعوك ..

ـ لا ألومك على ذلك . فقد كنت خشنة فى حديثى معـك ، ولعلك تغفر لى كل شيء .

ـ لست فى حاجة الى ذلك يا استر ، فأنا المخطيء فى حقك .

ـ لا . فقد كان فى وسعى عمل الكثير ولـكننى ركبت رأسى كالحمقاء ..

ـ أنت متعبة يا استر ، وفى حاجة لقسـط من الراحة ، ولسوف تعود جانى لنا وننسى ذلك الماضى الحزين .

وتشابكت أصابعهما فى الظلمة ، ثم اقتربت منـه ، وتلاقت الشفاه فى قبلة مودة وصفاء ..

***

هتف جيب يقول لرستيبو :

ـ اغلق المذياع والا أيقظ الدنيا بأسرها .

وكان جهاز الراديو ينقل تقرير تشريح الأسد بأكمله من معمل التحليل :

قد عثرنا على شعر آدمى حديث لم يتم هضمه،أما باقى الجثة فقد تحللت بفعل العصارة المعدية،ومن المحتمل أن تكون قدمضت أقل من أربع وعشرين ساعة على ذلك .

وغمغم ثورو يقول :

ـ أربع وعشرون ساعة ؟.. الوقت المناسب !

وسأل رستيبو المتحدث لاسلكيا :

ـ ألا يمكنكم تحديد نوع الفريسة .. السن أو الجنس أو ما يشابه ذلك أو لعله أمر فوق طاقتكم ؟

وراح الصوت المعدني يقول :

ـ لم ينته تقريرنا بعد . وفي وسعنا أن نحدد كل ما تريدون، حتى نوع السروال الذي كان يرتديه ..

وصاح جيب :

ـ الذي كان يرتديه ؟ اذن هو ذكر .. وليست جاني !

ورفع رستيبو يده يأمره بالصمت .. واتكأ الرجال الثلاثة حول المسماع على حين استطرد اخصائي المعمل الذي لم يكن أحد منهم يعرفه أو يراه يقول :

ـ من المؤكد أنه ذكر ، فقد تبين من الشعر أنه في الحلقة الخامسة أو السادسة من عمره . فهل يكفيكم هذا أيها السادة؟

ـ مازلنا في حاجة لمزيد من التفصيل ..

ـ ماذا تريدون أيضا ؟ آه .. ثيابه ؟ يبدو أنه كان يرتدي قميصا من اللون الكاكي وسروالا أزرق . فقد عثرنا في المعدة على زرار معدني عليه علامة (ليفي) .. مع بقايا خيوط صفراء وزرقاء. اننا لم نتم بحثنا .. وسوف نبعث لكم تقريرا وافيا ..

وقال له رستيبو :

ـ شكرا .. لقد وصلنا الى ما نريد معرفته مؤقتا . ونبعث لكم بخالص تحياتنا وتقديرنا .

ـ حسنا . نتمنى لكم أحلاما سعيدة !

وأعاد رستيبو المسماع الى مكانه .. وراحوا جميعا يتبادلون النظرات على حين كان يقول :

ـ على أي حال .. لقد جعلنا ذلك نطمئن على الصغيرة .

وقال ثورو :

ـ لكنه فتك بانسان ..

وقال جيب :

ـ أنا أعرفه .. فهو المسكين ريتشى "العجوز . العمـــر .. الثياب .. زرار ليفى . ثم هو غائب من أمس!

وأمسك ثورو برأسه وقال فى حنق:

ـ لقد ازدادت المشكلة تعقيدا بحق السماء! فبالاضـافة الى أننا لم نعثر على ضالتنا بعد نفاجأ برجل قتـله الأسد! رباه! هل من مزيد؟

وقال له رستيبو:

ـ ان الارهاق ليبدو عليك يا سيدى .. فلم لا تحاول قليلا من النوم؟

ونظر اليه الشريف وقال:

ـ صدقت . سوف أغمض عينى بعض الوقت . واذا جدشىء يجب أن أو قظ على الفور .

وتركاه يمضى الى سيارته ، ثم نظر رستيبو الى جيب وهمـا يفكران فى نفس الشيء .. وعبر رستيبو عما يدور بخلده قائلا:

ـ لقد ضرب بن العجوز عصفورين بحجر واحد .. قتل رتيشى ثم أتبعه بالحصان ، حتى صاده فيل! ولا يدرى أحد ماذا قد فعل أيضا .

وهز جيب رأسه قائلا:

ـ ذلك مالا أعتقده أبدا . ربما كان لحم الجياد من الأطبـاق المفضلة لبن العجوز أما أن يفترس رتيشى ويأكله حيا فلن أصدقه. ثم رتيشى من دون الناس وقد كان جلدا على عظام تتحـرك على الأرض .

ـ ربما قرصه الجوع فاضطر لذلك . ولا تنس أن العمر قـد تقدم به أيضا ..

ـ لو أراد التهام انسان ، فما حاجتـــه لرتيشى وأمامه همى شاه تقيم هناك فى الجبال ومنذ أمد طويل لم يمسسها بسوء؟

ولما رفع رستيبو حاجبيه مستفسرا .. اســـتطرد جيب موضحا :

ـ انها هندية بلغت من العمر عتيا وتقيم في كهف منعزل هناك فوق قمة الجبل الفضى ، وتأبى أن تفارقه حتى تدفن فيه ، ولما كانت لا تؤذى أحدا .. فقد تركناها لشأنها . ولابد قد تجاوزت الآن التسعين عاما ..

ـ ومتى شاهدتها آخر مرة ؟

ـ منذ ثلاثة أشهر أو نحو ذلك . حينما مررت مصادفة بها . ولكن لماذا تسأل ؟

ـ أعنى من أين لك أن تعلم وتثق بوجودها حية ترزق ولم يأكلها الأسد حتى الآن ؟ ولعله قد بدأ بها فلما استطاب مذاق لحمها مضى الى رتيشى ..

ـ لست أدرى . ولكننى مازلت أؤكد أن بن ما كان ليهاجم بشرا حيا . وأكبر الظن أنه قد مات من ضربة شمس أو مرض مفاجىء . وعثر صاحبنا عليه مصادفة . وعلى أى حال قد جعلتنى شكوكك أتوجس خوفا على همى شاه . ومن الخير لو طلبنا من قائد الهليوكوبتر أن ينطلق اليها مباشرة عند بزوغ أول ضوء ويزورها حتى نطمئن على سلامتها ..

وصمت لحظة ثم نظر الى رفيقه قائلا :

ـ أما ساورك يا رستيبو ذات مرة ذلك الاحساس الغامض بأن أمرا ما لا يمضى فى اتجاهه الطبيعى حسبما يقتضى العقل والمنطق ؟

وأجابه رستيبو :

ـ اننا نسمى ذلك الشعور « احساس رجل الأمن الغريزى »

ـ هذا ما أشعر به فعلا . فالقضية فى ظاهرها مجرد طفلة ضلت طريق العودة . ولكن أهى بتلك البساطة ؟ فكر معى ! فمثلا ذلك المنظار الذى وجدناه فى منطقة المناجم ، وقد ثبت أنها لم تذهب هناك اطلاقا . فكيف ؟ ومن الذى ألقى به ؟ ثم ما سبب

انطلاقها فى أعماق هضبة الشيطان برغم ماتعلمه يقينا عنه وتحذير أبيها لهـا من دون كافة المناطق ؟ انهـا لتمضى حتى تخوض النهر كى لا تترك خلفها أثرا لمن يتبعها ، وكأنها تهـرب من عدو لها ! ثم جثة رتيشى فى أمعاء الأسد ، وفى نفس الزمن الذى اختفت فيه جانى كوبر .

وهز جيب رأسه وأردف قائلا :

ـ أسئلة محيرة لا أجد فى عقلى اجابة واضحة لها .

ـ اننا نستمر فى البحث حتى نعثر على الجواب المناسب . هذا ما يفعله رجل الأمن .

ونظر جيب الى السماء ثم قال :

ـ مازالت أمامنا ساعة ونصف حتى الفجـر . ما رأيك لو رافقتنى فى « مشوار » قصير ؟

ـ على أتم الاستعداد .

ـ اذن . . فلنوقظ ويجاند ليكون متأهبا بكلابه !

* * *

كاد الجواد ينزلق ويسقط من شاهق ، لولا أن اعتدل كالفين لاورى وتدارك الكارثة .. لابد أن النعاس قـد لمبه .. ولكن كم من الوقت نامه ؟ دقيقة ؟ ساعة ؟ .. وراحت عيناه الناعسـتان تتـأملان ما حوله من صخور وأشجار تبـدو أشباحها كالشياطين فى الظلام !

كان الوقت لايزال ليـلا ، فاذا هو لم يغف سوى لحظات .

وأغمض لاورى عينيه مرغما ، ولكنه ما لبث أن فتحهما ثانيـة بصعوبة وهو يرتعد . أن الاجهاد والسهر يكاد أن يهـزمانه ، وعضلات رقبته توشك أن تتصلب .

وكان يحدث نفسه . صبرا ، فما عاد فى وسعى الراحـة أو الرجوع ، قبل أن أعثر عليها . يجب أن أعثر عليها . يجب أن ...

* * *

ترك جيب ورستيبو جواديهما عند أول هضبة الشـيطان ، وانطلقا على الأقدام فى حذاء مجرى كوشيلا حتى بلغا المكان الذى وجد فيه جثة الحصان الأحمر تنهشها أنياب الأسـد . وانضم اليهما ويجاند ، وكانوا يسيرون فى صمت ، حتى قطعه ويجاند متسائلا :

ـ وأين نمضى بعد ذلك ؟

وأجابه جيب مشيرا جهة الشمال :

ـ ان كوخ رتيشى قريب منا .. فوق صـخرة برودلوف . لنذهب اليه أولا ..

ومضت الكلاب فى يسر وكأنها أدركت اختفاء الأسـد ، حتى وصلت الى شجرة البلوط ، ورفضت أن تتحـرك ! وقطب جيب حاجبيه . لقـد جاء معه بالكلاب تتعقب رائحة بن العجوز .. لعلها ترشدهم الى مكان رتيشى أو ما تبقى منه ، وكان فى نفسه الهام بوجود رابطة ما بين اختفائه والطفلة ، ولكن قد تبـين أن آثار الأسد قد انتهت الى تلك الشجرة .

بيد انه لم ييئس وقال لرفيقه :

ـ هيا نتقدم قليلا ، وننطلق حول الشجرة ، فلربما استطاعت الكلاب أن تشم الرائحة ثانية ، ففى ظنى أن بن ربما قد عبرالمجرى هنـا .

وكانت خيوط الفجر قد بدت فى الأفق ، وسارت الكلاب وهى تتنسم الهواء حتى بلغت منطقة الصخور السوداء وعندئذ انطلقت الكلاب تعدو أمامهم وكأنما قد اكتشف شيئا ، وراحوا يجـرون خلفها لاهثين .

وما أن لحقوا بها حتى فوجئوا بالأشلاء متناثرة تحمل بقـايا ثياب رتيشى ! كان منظرا مخيفا جعل رستيبو وويجاند يرتعدان !

واشار جيب الى صخرة فوق الجثة ، ولكنها لم تخفها تماما عن العيون .. وقد استطاع بن أن يلتهم ما ظهر منها .

ـ هيـــا نزحزحها قليلا حتى نرى ما تحتها .

وما كادوا يحركون الصخرة حتى رأوا صـــدر رتيشى ، وبه ثقب كبير من رصاصة اخترقته بجوار القلب !

وتساءل رستيبو :

ـ أهذا هو رتيشى ؟

وأجابه جيب :

ـ أجل . وقد صدق حدسى ، فما أكله بن الا بعد أن كان قـــد فارق الحياة مقتولا بل ان اكتشافنا قد زودنا بالجواب الحاسم على ما يحيرنا . انها جناية قتل . دخلت الرصاصة من ظهره وخرجت من صدره !

السبت

من بين أولئك الذين لم يذوقوا للنوم طعماً .. الطفلة الصغيرة جانى كوبر .

فقد قضت هى الأخرى ليلة ليلاء ..

وبرغم احساسها بالاجهاد والتعب لم تجد فيما حولها مايغريها بالنعاس . حقا قد أعدت لها همى شاه من الخرق البالية والأغصان والقش الجاف فراشا أنه كان مجرد شيء يحميها من خشونة أرض الكهف الصلبة ، دون أن يهيىء لها أى سبيل للراحة البدنية . كذلك كانت الرياح الباردة تعصف على ذلك الارتفاع الشاهق وتدخل من فتحة الكهف الواسعة لتأخذ طريقها بين الفجوات فى الجدران الصخرية ، فتبعث الرعدة والقشعريرة فى جسدها الصغير .

وفوق ذلك ، كانت أمعاؤها تصرخ من الجوع ! ولم تستطع استساغة تلك الفطائر التى خبزتها لها الهندية العجوز من دقيق الحبوب الجافة والتى جمعتها من تحت الأشجار ، بسبب تأثر معدتها بالجوع الشديد وما جرعته من ماء وافر .

ولقد أدركت همى شاه ما تعانيه الطفلة ، برغم استحالة التفاهم بينهما .. وكل ما كان فى وسعها أن تفعله هو أن تحوم حولها فى حزن ولهفة ، تحاول قدر جهدها تخفيف ما بها ، وتقدم لها كل ما لديها من مئونة ادخرتها لنفسها لم تتناول جانى منها إلا قبضة من حبوب القمح راحت تطحنها بأسنانها وشريحة من

القديد المخزون ، كانت رائحته كافية لأن تثير معدتها . وهكذا أشرق صباح السبت وهي على أسوأ حال .

وفكرت - وقد اشتد بها اليأس - في الهرب قبل أن تزداد حالتها سوءا فتمرض وتموت برغم علمها بأن وجودها مع آدمية مثلها خير لها من أن تضل مرة أخرى في وادي التيه والهلاك .

وبذلت كل ما في وسعها لتجعل همى شاه تفهم ما تريده . انها ترجو منها ارشادها عن الطريق الذي يوصلها سالمة العمران . ولقد كلفها ذلك جهدا شديدا ضاعف من تعبها وارهاقها . بيد أن آمالها ما لبثت أن انتعشت من جديد حينما أفلحت في افهام مضيفتها بذلك . فقد أخذتها من يدها وخرجت بها من الكهف ، ثم وقفت بها عند أو الدرب ، وراحت تشير اليها والى نفسها والطريق المنحدر في الجهة الأخرى من العين المتفجرة بالماء ، ويهبط بها للجانب الآخر من الجبل .

وسألتها جاني :

- الى بيتنا ؟

وأومأت همى شاه برأسها وكأنما فهمت السؤال من اللهفة التي وجه بها . وشعرت جاني بارتياح عميق ، دون أن تفهم أن ذلك الدرب يؤدي الى مضارب قبيلة العجوز الهندية - وهو المكان الوحيد الذي تعرفه - ولا يؤدي اطلاقا الى أية مدينة بل الى وسط الصحراء .

وهتفت الطفلة تشكر همى شاه من أعماقها وتود لو استطاعت أن تعبر عن امتنانها بأي شيء تفهمه العجوز وقالت :

- لا أعرف كيف أشكرك يا سيدتي على حسن ضيافتك وكرمك !

وأجابتها العجوز بهزة من رأسها وكأنما ترجو لو أطالت جاني الاقامة معها قليلا ، ثم هرولت الى الكهف وجاني تقف في انتظارها متعجبة ، وما لبثت العجوز أن عادت ، تحمل في يدها حقيبة صغيرة من الصوف المغزول وضعتها بين يدي جاني في الحاف



شديد ، وهى تشير الى فمها بما يفيد أنه طعام • وفهمت جانى على الفور . انه زاد الرحلة ، وكل ما تدخره العجوز لمئونتها فى الأيام القادمة حتى تصلها النجدة .

وتأثرت الطفلة لانسانية همى شاه ، وشدت على يدها شاكرة ، ثم انطلقت فى الدرب ، وعند المنحنى تلفتت خلفها فاذا هى تلمح صديقتها العجوز واقفة ترقبها فلوحت لها بيديها مودعة،وما لبثت أن غابت عن بصرها فى ثنية الطريق .

واحتوتها الطبيعة الصامتة من جديد .. وحيدة بين الجبال الموحشة !

وتشبثت بالحقيبة الصوفية وضمتها الى صدرها وكأنهاتميمة تحميها من الأخطار ، وخطر ببالها فجأة انها قد نسيت فحص محتوياتها واذا بها تكتشف أنها حافلة بالبندق والجوز واللوز ، والذى سمعت من أبيها أنه أثمن الأشياء وأحب الأطعمة للهنود الحمر !

وقالت جانى تحدث نفسها فى صوت مرتفع :

ـ يا الله : لقد وهبت لى كل ما تملك .. ولم أعطها أى شىء !

وأحست بالأسف الشديد . لقد اطعمتها الهندية،واستضافتها فى كوخها الصخرى بل وأرشدتها عن الطريق ، ولم تفعل لقاء ذلك الا أن تشد على يدها شاكرة . سوف تعتقد انى أنانية ناكرة للجميل بلاشك .

* * *

ارتدت آليس ثيابها على مهل . وكانت حقيبة السفر التى أعدتها منذ أسبوع مضى مفتوحة بجوار الجدار فى غرفتها ، فهذا هو اليوم الذى كانت قد حددته لتترك ممرحنا وتنطلق الى أضواء باريس ، ومع ذلك فقد بدأت تغير فكرتها لقد باتت باريس وكل ذلك العالم الخارجى فى نظرها الآن .. واديا آخر من أودية الهلاك والضياع ، ولسوف تضل طريقها فيه مثلما فعلت الصغيرة

جانى ، وربما عثروا على الأخيرة حية ترزق ، أما هى فلن يعثروا عليها الا بعد أن تنهشها الذئاب .

وخرجت آليس الى الشرفة ولمحت جيب وريتيبو ممتطيين جواديهما ومن خلفهما جواد ثالث بلا راكب ، وكانا قادمين على بعد ، فانطلقت تحييهما فى سرور ، ولكن ما كاد الركب يقترب منها وترى ما يحمله الجواد الثالث حتى سقط قلبها من بين ضلوعها .

انه يحمل جثة ملفوفة فى غطاء . وى ! هل عثرا على جانى ميتة وجاءا بجثتها ؟ ودارت الدنيا أمام عينيها .

* * *

ترجل لاورى عن جواده ، وراح يتأمل البيداء الواسعة حوله ! وكان يقف على مرتفع يكشف منه وادى فارو بأكمله . ولقد قضى الليل كله يبحث عن طريدته ويقلب كل جحر يصادفه دون أى توفيق حتى لقد بدأ يشك فى أن تكون جانى قد وصلت فعلا الى تلك المنطقة ... لعله قد أخطأ فى تقديره ولم تجىء الى هذا المكان كلية ، وبالتالى لن يكون أول من يعثر عليها ، بل لعلها تجتاز بورتال كانيون فى تلك اللحظة فى طريقها الى ممر حنا ، حيث تحكى قصتها كاملة .

وبدأ يفقد أعصابه ثم سرح ببصره فى الوادى العريض . وأمسك أنفاسه بغتة وقد تسارعت دقات قلبه ! فقد رأى شيئا يتحرك وسط الخضرة تحته .. أهو خداع البصر ؟ هل هى تموجات العشب فى انعكاس الشمس ؟ كلا . بل هو آدمى يتحرك فوق المنحدر قادما من التل الفضى الذى يقع على يمينه . يا للسماء . انها أنثى بلا شك وشعرها يطير فى الهواء !

ثم تبين فجأة أنها ترتدى « سترة » حمراء انعكس عليها النور فجأة من وسط العشب الأخضر . يا للشيطان ! لقد وقعت أخيرا فى قبضته ! وركع على ركبته وهو يقدر المسافة التى لم تزد على مائة ياردة ، وذلك من خلال المنظار المثبت فى الماسورة ..

وارتعدت يداه ، وهو يقبض على بندقيته ، وبذل جهد الجبابرة حتى يحكم التصويب ، ثم أطلق النار .

ودوى صوت المقــدوف ثم ما لبث أن « تلاشى » صــداه فى الهواء ، ولكن لاورى كان مشغولا عن سماعه وهو يركز تفكيره فى الجسم الصغير أمامه ، والذى رآه يتهــاوى على الأرض ثم وهو يتقلب فى حالة احتضار .. ويسكن اخيرا !

وأطلق من قلبه ضحكة خافتة تعبر عن فوزه وانتصاره ،ومضى اليها ليتأكد من موتها :

❊ ❊ ❊

وثب جيب من فوق جواده ، وأسرع يمسك بآليس ويسندها الى مرفقه قبل أن تسقط على الأرض وهو يقول :

ــ تمالكى نفسك . انها ليست جثة جانى. ليست جثة جانى.

وحملقت فيه مشدوهة وكأنها لا تعى ما قال ، وعاد يهتف بها فى عزم :

ــ هل تسمعيننى يا آليس ؟ انها ليست جانى ..

وغمغمت فى ضعف :

ــ ليست جانى ... اذن لمن ؟

وحاولت أن تمضى الى الجواد الثالث ، ولكن رســتيبو حال دونها وهو يقول فى رقة :

ــ كلا .. ابقى فى مكانك فليس المنظر مما يمكن تحمله !

وسارع جيب يقول لها :

ــ انه العجوز رتيشى .

وقبل أن يستطرد فى الايضاح ، كان المكان قد امتلأ بالناس ، وفى مقدمتهم ثورو .. وقد جاءوا فى أثر صرخة آليس ، وكانوا جميعا يتحدثون فى صوت واحد ، ورفع ثورو يده يأمرهم بالسكون، ثم سأل رستيبو فى حدة .

ــ أين كنت بحق السماء ؟.

ــ لقد كنا فى جولة مع الكلاب . وعثرنا على المغامر العجوز .

ــ اذن فقد أكله الأسد .

ـ كلا .. لقد قتل من رصاصة أصابته في ظهره وخرجت من صدره !

وأقبل ماتيو كوبر يشق طريقه بين القوم ومعه امرأته ، ويتساءل في لهفة

ـ من الذى قتل بالرصاص ؟. بحق الملائكة أفسحوا لنا الطريق . ماذا حدث لعزيزتى جانى ؟.

وأجابه جيب في الحال :

ـ لم يحدث لها شيء انه أحد المغامرين ممن يسكنون في الجبال .. حذار ، فان زوجتك توشك على الاغماء .

وكانت استر كوبر تترنح فعلا من المفاجأة ، وابتسمت آليس ! لقد أحست بالسعادة حينما رجع اليها جيب . وكان جيب يبتسم لها ويقول :

ـ ترى من الذى سنهرع لاسعافه بعد ذلك ؟ كانت تتمنى لو اختلت به لتفضى له بمكنون قلبها .. ولكن لا الوقت مناسب ولا المكان أيضا .. فعليها أن تنتظر ..

واقترب واحد من الصحفيين وفى يده كراسة يقول للشريف :

ـ حسنا . نريد القصة !.

وأبعده الشريف عنه وهو يأمر الناس بالتفرق قائلا :

ـ لقد سمعت أنت بنفسك . وهذا كل ما عندى . ولكن أين ويجاند ؟.

ـ لقد تركناه مع جماعة المعتقلين .. وهم يمسحون الآن هضبة الشيطان بحثا عن الطفلة .

وأشار ثورو الى رستيبو ليتبعه الى السيارة وهو يقول له :

ـ تعال .. لنبحث في الجريمة الجديدة .

وعندئذ قال له رستيبو :

ـ ان لدى صديقنا رجل الحدود معلومات قد تفيدنا .

والتفت ثورو لجيتب وسأله :

ـ أحقا ؟.

أمازلت تستخدم أوهامك ؟.

ـ حسنا . اذا شئت أن تسمعها فيها ، أو سمحت لى بالانصراف ..

ـ اذن .. فلنسمعها ياسيدى !.

ـ بوصفى المسئول عن هذه المنطقة ، فقد حصرت كل من كان موجودا يوم الخميس مساء ، وهو اليوم الذى ضلت فيه جانى واختفى رتيشى أيضا . ثلاثة رجال فحسب . وهم : كوبر ولافلن والأستاذ .

ـ واذا أخرجنا كوبر ؟.

ـ هذا ما أؤيده أيضا . كذلك لافلن لا دخل له فيما حدث لرتيشى . ليس لأنى أعرفه جيدا فحسب ، بل لأنه كان يمضى اليوم كله فى المدينة مع زوجته ، وقد جاءا المشرب فى المساء ليشربا كأسين من الجعة . كذلك هوفمان كان مشغولا فى مشربه ولم يغادره طول النهار .

ـ وكيف تأكدت من أن شخصا غريبا لم يأت من الخارج ؟.

ـ لأنى كنت أمر بنفسى هناك . ولم ألمح أى غريب ..

وقطب ثورو حاجبيه وقال :

ـ حسنا .. لقد ضاقت دائرة البحث على أى حال ، وتركزت على من تسميه بالأستاذ .

ـ أنا لا أزعم لنفسى فطنة رجل الشرطة ولكنى أقول . حيث لم يكن هناك الا رجلان ، وقد قتل أحدهما برصاصة فى الظهر ، والثانى يمتلك بندقية بالفعل من نوع « مارلين » ، بالاضافة الى ما أعلمه عن شعور بعدم الانسجام كان باديا فى علاقة الرجلين ، أظنه لسبب أن العجوز كان ثرثارا يجد لذة عميقة فى اطلاق النكات ينشرها فى كل اتجاه ، ومن المحتمل انه تجاوز حدوده ..

ونظر ثورو الى أحد جنوده وصاح فيه :

ـ أسرع الى الراديو .. ومر بالقبض على ذلك الانسان فورا .. ترى ما اسمه وأوصافه ؟ وأنت يا رستيبو أعط الفرسان اشـارة للبحث عنه في المنطقة وضبطه في الحال ... تقول ان اسـمه كالفين لاورى ؟ ويعمل أستاذا في الجامعة ؟ حسنا ..

وأسرع جيب يقول :

ـ ولكنا لا نزال نبحث عن الطفلة جانى كوبر ..

ـ أعرف ذلك ولكنه قد يهرب ..

ـ هذا أمر بعيد الاحتمال ، فهو لم يعرف بعد بعثـورنا على وتيشى ، فمن منظر تلك الصخرة التى دفنه تحتها ، قد وثق فى اخفاء جريمته عن العيون ، ولو كانت لديه أية ريبة فلمـاذا يبقى هنا ليشترك معنا فى البحث عن جانى ؟ ولم يكرهه أحد على ذلك ؟

وأشار بيده الى سيارة صغيرة سوداء تقف خلف المشرب :

ـ وهذه هى سيارته ..

وهتف ثورو فى حنق :

ـ اذن بم تشير ؟ هل نجلس هنا ننتظر قدومه فى سكون ؟

ـ أجل . فنحن نعرف أنه الآن فى هضبة الشيطان أو ربما فى وادى فارو ، ولكنه لا يفكر فى الهروب . وأرى أن نستفيد من جهله وأمضى مع رستيبو في جولة بالطائرة لنحدد مكان فرق البحث والفرسان . وفى نفس الوقت لنبحث عن لاورى ..

ولمح جيب فى وجه الشريف ما يشير الى عدم اقتناعه فأردف يقول :

ـ ما أقصد أن أقوله هو أنه لا يجدر بنا أن نحول اهتمام فرق البحث عن مهمتهم الأصلية بعد أن مضوا طويلا وراء الطفلة ، على حين أنه من المؤكد لنا سـقوط لاورى فى الشـبكة . أيهما أكثر أهمية : انقاذ طفلة من الهلاك أم ضبط قاتل هارب ؟ .

ـ حسـنا . امض فى خطتك اذن ، ولـكن اذا لم تحدد الهليوكبتر موقعه ، فسوف أبادر بالنشر عنه فى الأرض والسماء لا

وهتف الطيار كوبتاس يقول :
ـ ونحن على استعداد .

وحين انطلق جيب ليركب الطائرة سمع آليس تناديه وهى تجرى نحوه ، فتوقف . وعندما دنت منه ورأى، وجهها المشرب بالحمرة وعينيها اللامعتين قال لها :

ـ ماذا بك يا آليس ؟ هل حدث شىء ؟ .
ووقفت تلهث وتجيب :
ـ لا . كنت فحسب أريد ...
ـ آه .. لقد نسيت ! . هذا يوم رحيلك . أليس كذلك ؟ هل يا ترى أجدك حين أعود ؟
ـ لا . يا جيب . سأبقى ! .
وقطب حاجبيه متعجبا وقال :
ـ ماذا ؟ هل عدلت عن السفر ؟
وأخرج رستيبو رأسه من نافذة الطائرة يهتف صائحا :
ـ هيا . يا جيب فالوقت من ذهب .
وأسرعت آليس تهمس فى حنان :
ـ سوف أشرح لك كل شىء .. حين تعود .
وأمسكت وجهه ورفعت نفسها على أطراف أصابعها .. ثم ...مت فوق شفتيه قبلة خاطفة وهى تقول :
ـ والآن . لتمض فى طريقك موفقا . ولكن عد لى ثانية فأنا فى شدة الحاجة اليك ..

وكانت مفاجأة له ، لم يفق منها الا بعد أن كان فى منتصف طريقه لباب الطائرة ، فعاد اليها يجرى وقبلها قبلة طويلة .. ثم مضى والدنيا لا تسعه .. ليركب الطائرة ! .

***

أرهفت جانى أذنيها فقد خيل لها أنها سمعت صوت رصاصة يتردد صداها خافتا بين الجبال ولكن الصوت لم يتكرر ، ولم تكن

واثقة مما سمعته . ففى تلك المجاهل الموحشة من العسير أن يتأكد الانسان من أى شيء .

ومضت بخطوات متثاقلة وقد عاد لها الشعور بالتعب والارهاق أكثر من قبل أن تسير هابطة الدرب الضيق ، بعد أن كانت قد أراحت ضميرها بتقديم خير ما تملكه هدية لهمى شاه .. تعبيرا لها عن شكرها وامتنانها العميق لما فعلته معها .. لقد أعطتها « سترتها » الحمراء ، وهى برغم صغر حجمها سوف تساعد فى حماية جسم الهندية العجوز ودرء البرد فى الليل عنها ! .

وفوجئت بأن الدرب الذى تسير فيه ، يمضى وسط منطقة حافلة بالشجيرات الكثيفة حتى ليضيق ويضيق فلا يكاد يسمح بمرور أرنب فيه ! . وراح وجهها يصطدم بالأغصان الشوكية الجافة التى كانت تخدشه وتخدش ساقيها النحيلتين .

وخرجت من الشجيرات الى مكان منبسط من الرمال الناعمة، لعله قاع نهر قديم . ووجدت أمامها طريقين متفرعين ، واحتارت أيهما تسلك ؟ . كانت تخشى أنها اذا مضت فى أحدهما ووجدته مغلقا ، تضل طريق العودة لتسلك الثانى ، وهداها تفكيرها الى أن تنزع « الشريط » الأخضر الذى تعقد به شعرها ، ثم تربطه فى فرع آخر شجرة خلفها ، ووقفت ترقب النسيم وهو يحرك « الشريط » فى الهواء وكأنه أحد الأعلام . وبعد ذلك مضت فى الطريق الأيمن .. وقد اختارته لسهولة السير فوق رماله الناعمة .

***

أمسك رستيبو بمسماع الطائرة اللاسلكى وراح ينادى :

ـ من الهليوكوبتر لقائدى الفريق الأحمر والأزرق .. دعنى أسمعكما . حسنا . هل تقابل أحدكم من شخص يدعى كالفين لاورى ؟ « وأعطاهما أوصافه » . حسنا . اذا حدث ذلك فألقوا القبض عليه فورا بتهمة القتل العمد .. قتل شخصا غير الطفلة اسمه رتيشى . وخذوا حذركم منه لأنه مسلح .

وعندئذ قال جيب لقائد الطائرة :

ـ أرجو أن تتجه بنا فورا الى الجبل الفضى ».

وانحرفت الطائرة الى ذلك الاتجاه ، على حين كان جيب يقول لرستيبو :

ـ هل تعرف ما يدور فى بالى منذ لحظة ؟ ان الطفلة تهرب من لاورى ، وليس لاورى هو الذى يهرب ».

وفغر رستيبو فاه متعجبا :

ـ ماذا حدث لك ؟ وما معنى ما تقول ؟

ـ فكر معى لحظة ! . ان خط سير جانى ليس طبيعيا بالمرة ؟ أو ليس ما يحدث من مجرد طفلة ضالة . أنها تجرى وكأن شخصا فى أعقابها يريد بها شرا ؟ . لقد قابلت لاورى مصادفة ليلة أن غابت الصغيرة .. قابلته فى هضبة الشيطان وكان ظاهرا انه يبحث عن شيء . ولما سألته زعم أنه يبحث عن « بن العجوز » فهل كان صادقا ؟ ثم عثرنا على المنظار فى منطقة المناجم ، مما يوحى بأن شخصا ما قد ألقاه هناك ليضللنا . فهل فعل ذلك لنخلى له السبيل ونتركه وحده فى هضبة الشيطان ، على حين يمضى هو وراء جانى ؟ بل لقد كانت رغبته ملحة فى أن يمضى فى اليوم التالى للبحث عنها ، ولم يفكر فى راحته أو يرغب فى النوم ».

ـ انك لواسع التخيلات يا جيب . ونحن لم نتأكد حتى الآن من أن لاورى هو الذى قتل رتيشى ! .

ـ كلاهما غائب الآن .. لاورى والطفلة . فهل لديك تفسير آخر ؟ .

وكانت الطائرة تحلق عند ذاك فوق الوادى القريب من الجبل الفضى . وامسك رستيبو جيب فجأة وهتف :

ـ ما ذلك الشيء الأحمر ؟

وحاول جيب أن ينظر الى أسفل ، ولكن الطائرة كانت قد تجاوزت المكان ، وصنع كوبتاس دورة ثانية .. ودون أن يأمره

بذلك أحد عائدا الى ذلك المكان ليتأكد مما شاهده رستيبو وسط العشب الأخضر .. وعاد رستيبو يتساءل وهو ينظر من خلال منظاره :

ــ ترى ما هو ؟ .

وأجابه جيب :

ــ يبدو انها جثة . ما لون « السترة » التى كانت ترتديها رجانى ؟ .

وأجابه رستيبو فى اقتضاب :

ــ لونها أحمر ! .

وغمغم جيب فى حزن :

ــ اذن .. فقد سبقنا اليها الشيطان .

وبدأت الطائرة تهبط .

***

كان مكريدى قد نجح فى تنفيذ خطته التى رسمها للهروب بعد أن تسلل دون أن يلحظه أحد وحالما توقف ركب رفاقه عند مشارف هضبة الشيطان للراحة والمبيت حتى الصباح ، وقضى معظم الليل وهو يشق طريقه فى الأرض الصعبة ، مستعينا بحاسته التى لا تخطىء فى تمييز الاتجاهات ، وما أشرق عليه الصباح حتى كان فى وادى فارو ..

وكان جسمه النحيل ووزنه الخيف يساعدانه على سرعة الحركة ، يضاف الى ذلك فرحته الغامرة بالخلاص من المعتقل ، وربما ظن الناس أنه انما استبدل بسجنه الصغير سجنا أكبر منه وأشد خطرا .. ولكن ليس مع مكريدى .. فهو لا يخشى البقاع الموحشة المقفرة .

وكان واثقا من أنه يمضى فى طريقه الصحيح ، خط الحدود ، وانطلق فى واد ضيق رماله ناعمة كان قديما قاعا لأحد الأنهار .. وهو يحدث نفسه بأنه بعد يوم أو يومين سيكون فى الخط الثانى وفى دولة أخرى لينعم بالحياة من جديد .

وقطع عليه تفكيره .. ما لمحه أمامه فجأة : « شريط » أخضر معلق فى أحد الأغصان يرفرف فى الهواء ، واقترب منه فاحصا فلعل الهواء قد حمله مع الرياح من بعيد .. ولكن كلا .. انه مربوط فى الغصن بيد انسان .

وهتف محدثا نفسه :

ـ انه .. لطفلة تعقد به شعرها .

وكان حتى تلك اللحظة قد نسى سبب خروجه من المعتقل ، حتى تذكر عندئذ أنهم كانوا يبحثون عن طفلة تاهت ، طفلة صغيرة قامت لها الدنيا ولم تقعد ، وهو من دون الخلق جميعا قد عثر على أثرها . وجدها مصادفة ، وتأمل الرمال التى يسير فوقها ، فاذا به يرى آثار صندلها الصغير واضحا كالشمس .

ووقف يفكر ماذا يفعل ؟ هل يعود أدراجه فيبلغ عما رآه ويطلب المعونة .. ويتعرض للسجن مرة أخرى ؟ فتفلت منه فرصة العمر ؟ سيكون أحمق انسان لو فعل ذلك .

وتحرك ليستأنف مسيره ولكن ضميره كان يبكى فى أعماقه .. أتترك طفلة فى عمر الزهور تهلك ؟ يا للسماء .. وحريتى ؟ . هل أعود للذل والحرمان وقد أوشكت على النجاة ؟ . وهتف غاضبا : « سوف يعثر عليها بكل تأكيد » ! .

ومع ذلك فقد عاد للوقوف يحملق فى « الشريط » الذى كف عن الحركة مع سكون النسيم ، وكأنما قد فقدت هى الأخرى الأمل الذى ترجيه من وجودها ! . وكيف يعثر عليها أى انسان فى ذلك المكان الذى لم يسلكه انسان ؟ لولا أنى مررت به مصادفة لما رأيت « الشريط » .

ونزع « الشريط » من مكانه ودسه فى جيبه ، ثم عاد أدراجه . فما كان له أن يترك الطفلة تموت ! .

وكان مستغرقا فى أفكاره على حين الجدال محتدم بين عقله وضميره ، فلم ير ذلك الفارس القادم نحوه الا بعد أن صار فى

مواجهته تماما ! . ولقد فوجىء بمرآه ، وهو الذى كان يعلم بأن فرق البحث تبعد عنه أميالا كثيرة . وكاد يدير ظهره للفـارس ويهرب ، لولا نظرة منه الى بندقيته المشرعة فى يده .. جعلته يفطن الى الخطأ الكبير الذى كان موشكا على الوقوع فيه وهتف قائلا :

ـ هى ؟ .

واهتز الفارس فى جلسته ، كأنما قد بوغت بمرآه .. وسأله فى حدة :

ـ من أنت ؟ .

وضاقت عينا مكريدى . هذا الفارس النحيل الطويل لا يرتدى ثياب الشرطة أو اية ملابس اميريه .. أتراه سيعرف من ملابس مكريدى والمميزة للمسجونين ، من يكون ؟ .

وقال مكريدى فى حذر :

ـ انما أبحث عن الطفلة الضالة . ولقد تفرقت وزملائى فى هذه المنقطة لذلك الغرض .

وصمت حين أدرك أن الفارس لا يصغى اليه ، بل راح يسأله فى لهفة :

ـ اين هى ؟ . انها قريبة منى ولكننى لا أستطيع العثور عليها فقد أمضيت ساعات كثيرة فى البحث عنها .

وأخرج مكريدى « الشريط » الأخضر .. وهو يقول :

ـ هذا ما كنت سأخبرك به .. لقد عثرت عليه هناك على بعد نصف ميل من حيث رأيتنى قادما .. وهناك أيضـــا آثار أقدامها واضحة فى قاع النهر الرملى الجاف ..

وانحنى الفـارس ثم اختطف « الشريط » من بين اصـابع مكريدى ، وفى حركة مفاجئة انطلق يجرى بالحصان فى الاتجاه المشار اليه ، حتى كاد يطأ الرجل بحوافزه ..

ووقف مكريدى متعجبا . يا للسماء ؟ ما معنى ذلك ؟ ولما لم يجد في نفسه جوابا ، أقنع نفسه بأن الظروف وحدها قد ساقت له ذلك الفارس ليحمل عنه ذلك العبء الذى أثقل ظهره .. وشعر بارتياح لأنه سوف يستمتع بحريته مرة أخرى ..

***

غمغم جيب فى حزن وهو يقلب الجثة ذات السترة الحمراء .. انها همى شاه .. الهندية العجوز ! قتلت من الخلف .

وأومأ رستيبو يقول عابسا :

ـ يخيل الى أنها « ماركة » لاورى المسجلة ! . شد ما يسعدنى ان أعرف سمك رقبته بأصابعى ! .

ومع ذلك وبرغم أسفهما لما حدث للعجوز ، فقد كان كلاهما مرتاحا لأنها ليست جانى كما ظنا أولا . وقال جيب :

ـ لقد بلغت من العمر عتيا ، وكان أملها الموت فى هذا المكان عند الحبل الفضى ، ولعله ظنها من السترة الحمراء جانى .

وقال رستيبو :

ـ والى أين نمضى الآن ؟ .

ـ اننا وراءه فما زالت الجثة ساخنة ، فكما قلت لك ما قتلها لاورى الا ظنا منه أنها جانى .. وهو الآن فى الطريق اليها .. والمسألة الآن مسألة وقت وفيمن يصل اليها أولا . اعطنى مسدسك يا رستيبو .

ـ ماذا هل تفكر فى مفارقتى ؟

ـ اجل . أريد منك ان تعود الى حيث فرق البحث بأسرع ما تستطيع بالطائرة وتنقلها هنا فورا .. وفى وسع الطائرة أن تحمل ستة أفراد كل مرة . اجعلهم يصنعوا خطا واحدا عريضا عبر وادى فارو ويتقدموا نحوى . ومن الأسف اننا لن نستطيع نقل الجياد بالطائرة أيضا ، ولكنى اعتقد أننا سننجح فى اصطياد لاورى ..

وقال رستيبو معترضا :

ـ ماذا تقول ؟ هل تنوى المضى وراء ذلك القاتل على القدم ؟ انه ليركب جوادا ويسبقك بشوط طويل ، وأرى أن تركب الطائرة فتوفر عليك جهدا ووقتا ..

ـ لن أستطيع رؤية آثار الأقدام من الجو ، بل لن أرى لاورى اذا اختفى تحت الأشجار . أعطنى مسدسك .

وأعطاه رستيبو مسدسه عن غير رغبة منه ، وبعد ذلك أشار الى جثة همى شاه قائلا :

ـ وما عسانا نصنع بها ؟

ـ سوف نواريها الثرى هنا تحت سفح الجبل الأبيض كما كانت ترجو ، ولكن فيما بعد ، فعلينا أن نفكر فى الأحياء أولا ..

وشد رستيبو على يد جيب مودعا وهو يقول :

ـ أتمنى لك حظا طيبا .

وانطلق مسرعا الى الطائرة ، ثم ما لبث أن تذكر شيئا فعاد مناديا جيب :

ـ انتظر . خذ هذا الجهاز اللاسلكى الخفيف معك فلربما احتجت اليه للاتصال بنا ، وكنا على مدى قصير منك ..

وسرعان ما انطلقت الطائرة وهى تصنع ضجيجا مرتفعا ، وتركت جيب وحيدا بين الجبال ، ومضى فى طريقه وهو يدعو الله فى سره أن يصل للطفلة قبل فوات الأوان ، وهو يتعقب آثار حوافر جواد كالفين لاورى ..

***

أخذت جانى تتقدم ببطء ، وقد بلغ بها الارهاق مداه ، وكانت تجلس بين آونة وأخرى لتريح ساقيها المكدودتين ثم تنهض بسرعة لتستأنف المسير ، وهى تخشى لو أطالت الجلوس أنها لن تستطيع الحركة بعد ذلك ، واكتشفت أنها فى احدى لحظات راحتها ..

تركت الحقيبة التى أهدتها لها همى شاه سهوا فوق صخرة ، ولم تعرف لشدة اجهادها متى وأين حدث ذلك .

وكانت قد اخترقت الغابة وهي لا تزال تسير فى مجرى النهر الجاف ، بيد أنها ما كادت تخرج منها بعد شوط طويل حتى فوجئت بانتهاء المجرى ، واذا بها أمام جبلين شاهقين يلتحمان فى تلك المنطقة ويسدان الطريق فى وجهها .

لقد حوصرت جانى فى مصيدة الموت ، وكان الارهاق قد نال منها واليأس قد هد جسمها ، وأدركت أنها النهاية المحتومة ، فدارت بها الأرض وسقطت مغشيا عليها .

***

وكان لاورى هو الآخر قد استنفد كل قواه وهده الارهاق والتعب . ولكنه كان يمتاز عن « الطريدة » بذلك الجواد الذى يجلس عليه ، يترنح بجسمه المكدود وقد أرخى له العنان .. لكن عينيه كانتا تحملقان الى الأمام وكأنه يخشى لو أغمضهما أن يقع فى سبات عميق . كان عقله هو الذى يبعد عنه شبح النوم وقلبه يغلى بالرغبة فى القتل .

لقد شعر بغضب شديد حينما اكتشف أنه أخطأ فى قتل تلك الهندية العجوز . بعد أن ظن أنه أصاب الهدف وانتهى من أمر جانى ! . وزاده ذلك اصرارا على تحمل المزيد من العناء حتى يصل لتلك الطفلة التى أفلتت منه مرات ومرات .

وراح يواصل تقدمه متتبعا الأثر الذى خلفتـه فوق الرمال الناعمة ، وصورت له أوهامه أنه لن يعرفها حين يراها ، فكان يجهد ذهنه المتعب فى تخيل ملامحها .

ولاحظ أن جواده قد توقف فى أرض منبسطة وكأنه حائرا لا يعرف أين يمضى . ثم تذكر فجأة كل شىء ! . وعندئذ رأى آثار أقدامها الصغيرة تمضى مخترقة الدغل الكثيف . انها هنا . لابد مختبئة خلف احدى الشجيرات . ولكز جواده ومضى فى الدرب الضيق جدا الذى يخترق الأشجار ، ويده على « الزناد » .

وما كاد يجتاز منطقة الأشجار الى حيث ينتهى الدرب ، حتى رآها ، ولم يصدق عينيه .

رأى جسم الطفلة الصغير ملقى على الأرض وقد دفنت رأسها بين ساعديها ، ساكنة لا تتحرك ، ولم تشعر بعدوها يقف عند رأسها ، حتى خيل اليه أنها ماتت لكنه ما لبث أن لاحظ أنها تتنفس فى بطء . لقد عثر عليها أخيرا .. وبعد جهد طويل ! .

وترجل عن جواده وهو ما زال يحملق فيها ، وترك الجواد يرعى قريبا ، ثم رفع بندقيته .

***

كان جيب سكوت يجرى بأقصى ما تحمله قدماه ، وعيناه فوق الآثار التى خلفها الجواد ، وبغته سمع صوت شخص يتحرك بين الأشجار فشهر مسدسه وراح ينادى بأعلى صوته :

ـ لاورى .. قف .

ولكنه اكتشف فى اللحظة التالية خطأه ، فلم يكن الذى أمامه الا رجلا يرتدى ثياب المسجونين ويسير على قدميه ، وما كاد يلمح رجل الحدود حتى استبد به الفزع وشرع فى الهروب ، لكنه عدل عن ذلك ، ورسم على وجهه ابتسامة وقال محييا :

ـ هالو .. شد ما أنا سعيد لرؤيتك ؟ .

ـ ألهذا فكرت فى الهرب ؟ .

ـ يبدو أن الأمور اختلطت على .. لقد كنت ضمن فرق البحث ، ولكنى ابتعدت قليلا ففقدت أثرهم .

ـ اذن فأنت السجين الذى فر من حراسه .. لقد عرفتك من ثيابك .

وهز الرجل كتفيه وقال :

ـ حسنا .. لا فائدة من الجدال معك .. وهذا المسدس فى يدك .. أنا مكريدى . ويبدو أنه حالفنى سوء الحظ . هل تنوى اعتقالى ؟

وأجابه جيب :

ـ فيما بعد .. أما الآن فأنا أبحث عن الطفلة ، فهل قابلتها ؟

وصمت مكريدي مترددا ، ثم قال :

ـ ربما نعم ، وربما لا ..

ـ ما معنى ذلك ؟ .

ـ اذا قدمت السبت وجدت الأحد أمامك ، واذا خدمت الناس كانوا جميعا « خدامك » . أنت من رجال الأمن ، فاذا تناسيت أنك رأيتني ، فربما استطعت أن أرد لك الجميل .

ـ أنصت الى أيها الأحمق . ان مزاجي ليس رائقا حتى أدخل في مساومة معك . عليك أن تتكلم سريعا وفى الحال ، والا أطلقت الرصاص على قدمك وتركتك هنا حتى يعثر عليك غيرى . فهل تحب هذا ؟ .

وكان جادا فى قوله ، فاصفر وجه مكريدى ، ورفع يده .. كأنما ليحول دون خروج الرصاصة .. وقال متلعثما :

ـ سأتكلم .. لقد عثرت على شريطها هناك « وأشار الى الدرب خلفه » .. وآثارها أيضا فى قاع النهر الجاف ..

واشتد هياج جيب وغضبه وهو يقول للرجل :

ـ ثم شرعت فى الهرب ، وتركت الطفلة لقدرها المحتوم ؟ ان حياتك لا تساوى فى نظرى قلامة ظفر . وتستحق القتل .

وبكى مكريدى قائلا :

ـ كلا .. انتظر ! . حقا لقد حاولت أن أهرب منك ، ولكن بعد أن أخبرت الرجل الآخر بذلك ..

ـ من ذلك الرجل الآخر ؟

ـ الفارس على الجواد .. أعطيته « الشريط » وأرشدته اليها . سله اذا شئت ! .

وهمس جيب مذعورا :

ـ يا للسماء ! . هل أرشدت لاورى عن مكانها ؟ ».
وأجابه مكريدى مسرورا :
ـ هل رأيت ؟ فلا حاجة بك لتكون قاسيا على ».
ـ ومتى حدث ذلك ؟

ـ منذ عشرين دقيقة .. أو نصف الساعة ، فلا أحمل شيئا يرشدنى الى الوقت . ولابد أنه قد عثر عليها الآن وفى أمان .

كان مكريدى يصرخ فى جيب الذى تركه فجأة وانطلق يعدو فى الدرب . لم يعد يهمه السجين الهارب ، فعاجلا سيقع بين يدى الفرسان . وما كاد يمضى الى منتصف المسافة حتى سمع صوت طلقة الرصاص .

***

أنزل لاورى بندقيته بعد أن كان قد شرعها ليطلق النار على جانى . وفوق مرتفع من الأرض ، جلس وقد دفن وجهه بين راحتيه ، وراح يغمغم فى غضب :
ـ ويلى ! . ماذا جرى لى ؟ لماذا لم أقتلها ؟ .

وبيد ترتعش ، أخرج علبة سجائره ثم أشعل واحدة ، وهو يستعيد فى ذهنه ، كيف أحس فجأة بأن سبابته لا تقوى على لمس « الزناد » ، بل لقد شعر كأن وزن البندقية التى يحملها قد تضاعف عشرات المرات وكأنها مدفع مما تجره الخيول ، مما جعله ينوء بثقلها فينزلها عن كتفه .. ولم يعرف لاورى لذلك تعليلا ، وهو الذى ظن أنه قد تأهب لتلك اللحظة الحاسمة ، وأقنع نفسه بأن من الضرورى انقاذا لحياته أن تموت . ولكنه وهو يتأمل ذلك الجسد الصغير مكوما . وجهها الى الأرض وفى حالة اغماء شديد وضعف ملحوظ . لم تطاوعه نفسه أن يقتلها ، كان يريد أن يتشفى برؤية الأنثى وهى تتوسل وتتضرع وتجثو عند قدميه فزعة باكية ، ثم يستمتع بمشاهدتها والموت يحصدها بمنجله . أما أن تموت وهى فى حالة اغماء ميتة هنية سهلة ولا تشعر بما ينتظرها فذلك ما لم يحبه أو يرضاه ».

وراح يراجع نفسه يائسا ، وقد بدأت غشاوة الجنون تنقشع عن عقله لأول مرة . ماذا يفعل ؟ . هل يتركها فى ذلك الوادى القفر تلفظ آخر نفس من أنفاسها الضعيفة ؟ . وماذا لو استطاع أحد أن ينقذها ، فتحكى له أو لهم القصة من أولها ؟ ولكن من الذى سيعرف مكانها غيره ؟

ومضى الى جواده وأمسك بعنانه . وعندئذ لاحظ دخانا يتصاعد من الأوراق الجافة المتساقطة على الأرض . المكان الذى ألقى فيه سهوا « عقب » سيجارته المشتغل . بل لقد بدأت النار تمتد ، وبدت من لاورى حركة لا ارادية لاطفائها ، لكنه ما لبث أن توقف ! إن القدر يكتب نهاية أخرى للطفلة ، وكأنما قد هيأ له الحل السعيد والذى كان عقله يبحث عنه ، ولن يكون مسئولا عن سفك دماء طفلة مغمى عليها .

وبدأ جواده يصهل بشدة ، وقد ازدادت سخونة الجو والنار تسرى فى الهشيم ويرتفع أوارها ولهيبها ، ولولا أن اشتدت قبضة لاورى على عنانه لولى هاربا .

وظل الشيطان بعض الوقت يتأمل ألسنة اللهب وهى تمتد الى شجرة اللوط التى رقدت جانى قريبا منها ثم استدار ليمتطى جواده .

***

كان جيب يلهث بعنف ، وقلبه يدق كطرقات الحداد فوق السندان ، ومع ذلك فلم يكف عن العدو . كان قلبه يسابق قدميه . لم يكن لديه أية ريبة فى أن التقاءه بغريمه أصبح محتوما . فالطريق مغلق دونهما بين التلال ، أما الذى سيفعله حينما يراه ، فقد تركه للظروف وحدها .. وراح يدعو الله الا يصل متأخرا ، وهو يستأنف العدو ..

وفجأة سمع صوت حوافر جواد قادمة تجاهه ، فوقف فى منتصف الطريق ومسدسه مشهر فى يده .

وظهر الجواد من بين الأشـــجار منطلقا بأقصى سرعته وكأن الشياطين فى أعقابه ، ولكن سرجه كان خاليا من راكبه ! . وتنحى جيب عن طريق الجواد المذعور وهو يمضى بجانبه كالقذيفة ، وأدرك أنه لابد أن يكون جواد لاورى . ولكن أين هو ؟ وما الذى جعل الحيوان يفر دون صاحبه على هذا النحو ؟

وعرف الجواب فى الحال ، فقد اشتم رائحة الحريق تحملها الرياح فى كل مكان . لقد تحقق ما كان يخشاه جيب ، واشتعلت النيران فى الغابة اما مصادفة أو بفعل ذلك المجنون .

ولم يستطع الانتظار ، فهناك طفلة ستحاصرها النيران ولابد من انقاذها أولا ، وانطلق مرة أخرى يعدو حتى دخل منطقة الدخان الكثيف ، ورأى عـــدوه وقد انعكست النيران الملتهبة على محياه ، يقف كالمارد وسط ألسنة اللهب ..

وكان لاورى قد لمحه فى نفس اللحظة فصاح به حتى يعلو صوته على « قرقعة » النيران وهى تأكل الأشجار :

ـ ابتعد . واياك أن تقترب .

« وزغق » فيه جيب :

ـ أين جانى :

وارتفعت منه ضحكة عالية ، وقال :

ـ لقد وصلت متأخرا يا صاح ! . لن تستطيع انقاذها ، فقد انتصرت عليكم جميعا .. ها .. ها .. هزمتكم بمفردى .. ها .. ها ..

لقد جن جنـــون الرجل وعادت اليه لوثته وهو مستمر فى صياحه وقد انقلبت سحنته فبدت كريهة مخيفة :

ـ ابتعد .. انها ليست لكم أو منكم بعد الآن .. انها ملك للنيران .. ابتعد .. والا قتلتك أنت أيضا ..

ولم يبال جيب بتهديد لاورى واستأنف تقدمه وسط النار .. لابد أن يعرف أولا اذا كانت جانى لا تزال حية أم قتلها الوغد ..

يلمحه يسدد نحوه بندقيته فوثب جانبا فى اللحظة التى مرت فيها الرصاصة بجوار أذنه ، ومع ذلك فلم يشعر بأى خوف ، وأخــذ يخوض وسط الأنقاض المشتعلة . وعاد لاورى يسدد بندقيته نحوه مرة أخرى ، فعاجله جيب برصاصه من مسدسه .. أتبعها بأخرى ثم بثالثة .. وسقط الشيطان على أثرها صريعا وسط اللهب .

ولمح جيب مستنقعا صغيرا على قرب ، به بعض المياه المتخلفة من الأمطار ، فجرى اليه وراح يتقلب بكامل ثيابه فى الماء حتى تشربت منه تماما ، ثم بلل منديله وربطه على وجهه ، ثم مضى يخترق النيران باحثا عن جانى بعد أن تخلص من مسدسه . الذى لم يعد فى حاجة اليه .

كان يتنفس بصعوبة وهو يبحث عنها وسط اللهب والدخان الخانق الكثيف وهو يدعو الله أن يوفقه فى العثور عليها قبل فوات الأوان . وأخيرا وجدها هناك حيث يلتقى الجبلان ، ملقــاة على وجهها ساكنة لا تجيب ..

وركع بجوارها وهو يناديها ويتحسسها والنيران خلفه قائلا :

ـ الحمد لله . انها تتنفس ! .

وحملها على صدره وأسرع بها الى المستنقع ، وأغرق وجهها فى الماء بعد أن وضع يده على فمها وأنفها ثم بلل جسمها وملابسها حتى امتلأت بالماء ومضى يخوض بها المستنقع حتى اجتازا المنقطة التى اشتد بها السعير .. وهى تحاول الفكاك منه والتخلص من يده التى تكتم انفاسها .

وأخيرا .. أخرج رأسها من الماء وهتف فى أذنها :

ـ تنفسى يا جانى . خذى بعض الهواء فى رئتيك .

وبرغم ضعفها الشديد ، فقد فهمت ما يطلبه منها ، وأخذت نفسا عميقا ، ثم بعد ذلك وضع يده على أنفها وفمها وراح يجرى بها وسط اللهب يحتضنها فى صدره حتى وصلا الى الأمان ..

كان الجو ما زال ساخنا والرياح تحمل أصوات الجحيم فى

الغابة ، وخيل اليه أن دهرا من الزمان قد مر عليه منذ لحظة عثوره على جانى ..

وجلس بها يستريح ويلتقط أنفاسه .. ويدلكها بيديه ويجرى لها تنفسا صناعيا ، حتى فتحت عينيها ونظرت أليه .. لتشتعل النار فى الغابة ، وفى غابات الدنيا كلها .. لا يهم .. حسبه أنه أنقذ الطفلة من الموت .. كان ينظر فى عينيها ويتخيل فيها وجه مخلوقة أخرى ما زالت فى طى المجهول .. ابنته من آليس ! .

***

وغمغم يقول لآليس وهى بين ذراعيه :

ــ أرجو أن تنجبى لنا طفلة مثل جانى ..

وابتسمت له تقول :

ــ وى ! . أبمثل هذه السرعة ؟ .

((تمت))